روايات عالمية للجيب 64

مغامرات أرسين لوبين



تأليف : موريس لبلان
ترجمة وإعداد : د . أحمد خالد توفيق

المؤلف



من هو عكس المخبر البريطانى الراقى (شيرلوك هولمز) ؟ طبعًا هو اللص الفرنسى الراقى (أرسين لوبين) ! يبدو أن (لوبين) وُلد على سبيل التحدى الفرنسى للثقافة البريطانية السائدة ؛ فاللص العبقرى قادر على أن يحير المخبر العبقرى ، وأن يفتن القراء بنفس القدر تقريبًا .. وفى عدة قصص التقى الاثنان ضد بعضهما فعلاً ..

الأب الشرعى للوبين هو الأديب الفرنسى (موريس لبلان Maurice Leblanc) الذى ولد عام 1864 وتوفى عام 1941 ..

كان (لبلان) ابن مالك سفن ثرى ، ولد فى (روين) بـ (نورماندى) وتلقى تعليمًا فى فرنسا وألمانيا وإيطاليا .. يبدو أن دراسة القانون فى العالم الغربى صعبة أو مملة لأن عددًا كبيرًا من الأدباء تخلوا عن دراسة القانون ليحترفوا الأدب .. هذا ما فعله كاتبنا عندما ترك الدراسة ليحرر صفحات الحوادث فى بعض الصحف الباريسية ، ويكتب قصصًا أولها رواية (امرأة 1887) التى كانت دراسة نفسية لم تحقق نجاحًا يُذكر .. كان متأثرًا بغول أدبى فرنسى هو (جوستاف فلوبير) ، لكن هذا الأخير ببساطة لم يكن من الممكن تقليده ..

ثم ولدت شخصية (أرسين لوبين Arsène Lupin) الـذى لاأعرف حتى اليوم لماذا لا ينطق (لوبان) كما أفهم قواعد النطق الفرنسية ـ فى الرواية الأولى (اعتقال أرسين لوبين ـ 1905) ..

فى مصدر آخر قرأت أن الرواية الأولـى هـى (أرسين لوبين : اللص الجنتلمان ـ 1907) .. ومنذ ذلك الحين كتب الكاتب ستين عنوانًا منها 21 رواية بطلها (لوبين) .. وحقق شهرته للمرة الأولى ..

(لوبين) اللص المهذب الراقى شديد الذكاء والظرف ، قد سيطر على كتابات (لبلان) خمسة وعشرين عامًا .. إنه خبير تنكر وجرائمه ليست ذات طابع أنانى ، بل هو أقرب لروبين هود فى نواح عدة .. عدواه الدائمان هما المفتشان (جورشار) و (جانيمار) .. ويقال إن (لوبين) مستوحى من شخصية الفوضوى الفرنسى (ماريو جاكوب) الذى حوكم عام 1905 .. كما قيل إن لها جذورًا فى شخصية الجنتلمان اللص الذى قدمه (ميرابو) فى مسرحية (21 يومًا من حياة نوراستانى) .. إن هذا النوع من القصص التى تعج باللصوص الظرفاء ـ النبلاء فى الحقيقة ـ كان يصنف فى الأدب قديمًا تحت اسم (البيكارسك Picaresque) ـ الرواية الاحتيالية ـ وهو فن ذو أصل أسبانى يمت بالقرابة لعالم قصص (الشُطَّار) فى الأدب العربى ..

على أن هناك أدلة تقول إن (لبلان) لم يكن فخورًا بـ (لوبين) .. كان يصبو إلى تقديم ما يعتبره (أدبًا حقيقيًا) وقد شعر بأنه يقدم

(لوبين) لأنه فشل فى الأدب الصرف .. كما كان يصبو إلى تقديم شخصية ناجحة أخرى، لكنه لم يستطع .. هذه هى تقريبًا ذات عقدة (كونان دويل) مع (شيرلوك هولمز) ..

من أفضل قصص (لبلان) قصة (813 - 1910) التى يُتهم فيها (لوبين) بالقتل، لكنه يقود الشرطة لمعرفة القاتل الحقيقى ..

على أن (لبلان) قدم عملين مهمين من الخيال العلمى هما (العيون الثلاث - 1919) و(الحادث الرهيب - 1920) حيث يؤدى زلزال إلى تكوين أرض بين فرنسا وإنجلترا ..

لقد قدمت القصص فى عشرات الأعمال السينمائية والتلفزيونية، وفى اليابان ألهمت الفنانين بتقديم مغامرات حفيدة (لوبين) . وفى مصر عرف الكثيرون هذا اللص الظريف الذى حظى بشعبية قد تفوق شعبية (هولمز)، لكن هناك الكثير من الخلط والتلفيق فى ترجمة قصصه إلى العربية، وقد لاحظ الأديب الراحل (صلاح طنطاوى) أن هناك قصصًا كثيرة للقديس و(روكامبول) تتم ترجمتها مع استبدال (لوبين) باسم البطل الأصلى؛ لهذا قد تقابل (لوبين) فى عصره الأصلى: عصر الماركيزات والمبارزات ونبلاء فرنسا، وقد تقابله فى عصر منظمات الجاسوسية والميكروفيلم والغواصات والطائرات . النوع الأول فقط هو الأصلى والباقى مزيف !

د. أحمد خالد

الفصل الأول

ابنة المليونير

أغرقت شمس (سبتمبر) القاعات العظيمة فى قصر دوقات (شارميراس) العتيق، مضيئة بأشعتها المبهجة تحف العصور الغابرة، مع لمسات من ذوق كريه يميز أولئك الذين لا يعيرون قيمة إلا للمال ..

أعاد الضوء الذهبى إلى الأثاث الذى يعود عصره للإمبراطورية الأولى جزءًا من مجده القديم .. وأضاء صف الصور المعلقة على الجدار التى يبدو فيها آل (شارميراس) الموتى منهم والأحياء .. وانعكس على درع حديدى براق وألقى أضواء باهتة على درع برونزى .. ثم سقط على السجاجيد مما أضفى على القاعة مهرجانًا من الألوان ..

لكن من بين كل الروائع المتناثرة، كان وجه الفتاة الجالسة تكتب أمام النافذة هو الأروع والأجمل ..

كان جمالاً هشًا رقيقًا .. كان لجلدها ذات لون الخزف القديم، وعلى خديها الشاحبين لون أكثر الأزهار شحوبًا .. إن عاشق الجمال كان سيقف حائرًا بين عينيها الخضراوين المعشوقتين أو فمها الحساس .. لكنه بالتأكيد كان سيتضايق من جو الحزن البادى على وجهها .. وتلك المعاناة الواضحة ..

كان هناك حول وجهها إطار من شعر ناعم يتخلله الذهب حيث ترقرقت أشعة الشمس ، بينما خصلات مجعدة عصية على التمشيط تتراقص على جبهتها ..

كانت تدون العناوين على مجموعة من المظاريف وفى يدها اليسرى قائمة أسماء طويلة .. فكلما انتهت من مظروف دست فيه بطاقة دعوة للزفاف عليها :

« السيد (جورناى مارتين) يتشرف بدعوتكم إلى حفل زفاف ابنته (جرمين) إلى الدوق (شارميراس) .. »

كانت تكتب مظروفًا تلو الآخر وتضيفه إلى كومة المظاريف المعدة للإرسال جوارها .. هنا جاء صوت من الشرفة يصيح :

– « (سونيا) ! (سونيا) ! »

جاء صوت الفتاة يقول :

– « نعم يا مدموازيل جرمين ؟ »

صاح الصوت المشاكس الخشن على الأذن :

– « شاى ! اطلبى الشاى .. هلا فعلت هذا ؟ »

قالت (سونيا) :

– « حسن يا مدموازيل جرمين .. »

ونهضت إلى المدفأة لتشد حبلاً يقرع جرسًا .. هناك وقفت لحظات وأعادت زهرة سقطت من المزهرية .. هنا دخل خادم الغرفة .. فقالت له بصوت ساحر يشبه رنين الأجراس .. الصوت الذى لم تمنحه الطبيعة إلا لعدد محدود جدًا من ممثلات المسرح العظيمات :

ـ « هلا جلبت الشاى من فضلك يا (ألفريد) ؟ »

ـ « لكم يا آنسة ؟ »

ـ « أربعة .. ما لم يكن سيدك قد عاد .. »

ـ « لا .. لم يعد .. لقد ذهب إلى (رين) للغداء .. لن يعود قبل ساعة أخرى .. »

ـ « والدوق ؟ ألم يعد بعد ؟ »

ـ « نعم لم يعد بعد يا آنسة .. »

وهم بالانصراف لكنها صاحت :

ـ « لحظة .. هل حزمت كل شىء من أجل رحلة باريس ؟ هل تأهبت الخادمات جميعًا ؟ »

ـ « بالنسبة للخدم أنا متأكد يا سيدى .. لكنى لست واثقًا فيما يتعلق بالخادمات ، فهن يستغرقن وقتًا أكثر مما نستغرقه نحن .. »

ـ « قل لهن أن يسرعن .. »

انصرف (ألفرد) فعادت إلى المنضدة .. هنا جاء الصوت الخشن من جديد :

- « ألن تنتهى من هذه البطاقات يا (سونيا) ؟ »

وظهرت (جرمين جورناى مارتين) من الشرفة داخلة إلى القاعة ..

كانت وريثة ملايين (جورناى مارتين) تحمل مضرب التنس وقد احمر خداها من جهد اللعب ، وكانت فتاة حسناء مبهرجة الألوان .. النقيض الكامل لجمال (سونيا) الرقيق الشاحب .. كان من الواضح أنها قوية عنيدة المراس ..

جاءت الصديقتان اللتان كانتا تلعبان التنس مع (جرمين) ، وهما (جين جوتييه) فارعة الطول السمراء المتجهمة و(مارى بولييه) قصيرة القامة اللطيفة العاطفية .

سألت (مارى) :

- « هل كل هذه بطاقات دعوة للزفاف ؟ »

قالت (جرمين) مقطبة :

- « نعم .. ولم نصل بعد لحرف V .. »

ثم قالت فى فخر :

- « مدام (ريلزبيه) ابنة خالة خطيبى دعتنى إلى دارها لحفل على شرفى .. هناك قدمت لى نصف باريس .. باريس التى علىّ أن أعرفها جيدًا .. باريس التى سترونها فى قاعات دارى .. »

قالت (جين) :

ـ « لكننا لن نعود صالحتين لك حين تصيرين دوقة (شارميراس) .. »

ـ « لا تنسى يا (سونيا) (فوليجليس) رقم 33 شارع الجامعة .. ولكن انتظرى .. لابد أن أعرف إن كانت دوقة (فوليجليس) ستأخذ صليبًا أم اثنين أم ثلاثة .. »

تساءلت الصديقتان :

ـ « ما معنى هذا ؟ »

ـ « صليب واحد فى الدعوة معناه دعوة للكنيسة .. صليبان معناهما دعوة لإفطار حفل زفاف .. ثلاثة صلبان معناها الدعوة لحفل الزفاف نفسه .. ما رأيكما فى عدد الصلبان التى سأرسلها فى دعوة دوقة (ليجليس) ؟ »

قالت (جين) :

ـ « لا تسأليني أنا .. لو كنت مكانك لطلبت رأى خطيبى .. فلابد أنه أدرى بهذه التعقيدات .. »

ـ « خطيبى (جاك)؟ إنه لا يبالى لحظة بهذه الأمور .. كان مختلفًا تمامًا منذ سبع سنوات ، عندما قام برحلة للقطب الجنوبى لمجرد لذة الاستعراض .. »

- « واليوم ؟ »

- « اليوم لم يعد يطيق الرسميات والمجتمعات .. إنه رزين تمامًا اليوم كأنه قاض .. تصوري أن أبي مجتمع مع الوزير الآن بصدد منح وسام لزوج ابنته المقبل ؟ »

- « هل تعنين وسام (لجيون دونير) نفسه(*) ؟ »

- « يا عزيزتي .. (اللجيون دونير) للناس البسطاء العاديين ! إنه لا يليق بدوق ! »

هنا دخل (ألفرد) حاملاً صينية الشاي ووضعها على منضدة صغيرة جوار سونيا ..

كانت (جرمين) تشعر بأهمية قصوى لدرجة أنها لم تستطع الجلوس .. راحت تذرع الغرفة جيئة وذهابًا .. ثم توقفت أمام تمثال صغير على البيانو ، وسألت :

- « ما هذا ؟ من أتى بهذا التمثال الصغير هنا ؟ »

قالت (سونيا) في شيء من دهشة :

- « كان هنا منذ البداية .. »

تساءلت (جرمين) :

(*) Légion d'honneur ومعناها (وسام الشرف) ، وهو وسام فرنسي عالي المكانة .

ـ « هل دخلت هنا بينما كنا فى الحديقة يا (ألفرد) ؟ »

ـ « لا يا سيدتى .. »

ـ « هذا غريب جدًا .. التماثيل لا تتحرك من تلقاء نفسها .. »

وقف الجميع يرمق التمثال فى دهشة كأنما هم يتوقعون أن يتحرك أمام عيونهم من جديد ..

ثم إنهن جلسن يشربن الشاى ويتحدثن عن حفل الزفاف المقبل وما سيلبسنه ، والهدايا التى بدأت (جرمين) فى تلقيها فعلاً .. كانت (جرمين) متذمرة لأن أحدًا لم يتصل من باريس ومعنى هذا أنه لم تصلها هدايا اليوم .. كانت تتصرف كطفل مدلل يتخذ سكنه فى جسد فتاة ناضجة فى الثالثة والعشرين ..

دق جرس الهاتف فاندفعت (جرمين) ترد :

ـ « مرحبًا .. هل هذا أنت يا (ببير) ؟ بل أنت (فيكتوار) .. هل وصلتك هدايا ؟ جميل .. ما نوعها ؟ ماذا ؟ فتاحة خطابات ؟ فتاحة أخرى ! يا للقرف ! ممن جاءت ؟ الكونتيسة (رودلف) وبارون (دى فاليرى) ؟ »

ثم التفتت للفتيات ، وقالت وصوتها يرتجف تيهًا :

ـ « آه يا بنات .. هناك قلادة أيضًا .. قلادة من اللؤلؤ ! »

ثم وضعت السماعة وعادت مقطبة ، وقالت :

- « هـذا مشين .. أصدقاء بابا يهدوننى قلائد من اللؤلؤ بينما أصدقائى أنا يرسلون لى فتاحات خطابات ! »

قالت (جين) :

- « بمناسبة مدام (ريلزييه) ، هل تعرفين أنها تموت قلقًا اليوم ؟ إن ابنها يخوض مبارزة .. »

سألت (سونيا) :

- « مع من ؟ »

قالت (مارى) :

- « لا نعرف .. لقد وصلها خطاب بذلك منذ قليل .. »

قالت (جرمين) :

- « أنا مطمئنة على (ريلزييه) .. إنه مبارز لا يُشق له غبار .. »

لكن (سـونيا) لم تبـد مطمئنة مثلها ، وبدت نظرة قلق على وجهها .. هنا سألت (جين) :

- « ألم يكن آل (ريلزييه) هم سبب معرفتك بالدوق ؟ »

- « بلى .. لقد التقينا هنا أول مرة .. لو لم يرغب (جـاك) فى بيع هذا القصر لتمويل حملة القطب الجنوبى ، ولو لم يكن أبى راغبًا فى شراء قصر عتيق ، فلربمـا ما كنا التقينا ولما كنت لأصير دوقة

(شارميراس) بعد شهر من الآن .. لقد دعا (جاك) أبى لقضاء ثلاثة أسابيع هنا .. ووقع فى حبى .. هكذا رتبت الأقدار كل شىء .. وقد وافقت عليه .. »

ـ « لكنك كنت وقتها فى السادسة عشرة .. كنت صغيرة جداً .. »

ـ « حتى فى تلك السن تعرف الفتاة معنى كلمة (دوق) .. لقد رأى أبى أننى صغيرة جداً على الزواج لذا تم تأجيل كل شىء إلى حين عودة (جاك) من القطب الجنوبى .. »

ـ « أنت اليوم فى الثالثة والعشرين .. زهرة العمر .. »

ـ « لقد انقطعت أخبار الدوق من القطب الجنوبى لفترة طويلة ، وقيل إنه مات .. كانت هذه كارثة حقيقية .. فجأة منذ ستة أشهر عادت خطاباته وعرفنا أنه عائد ! بعد سبع سنوات من الانتظار ! كنت على وشك الزواج من رجل آخر .. مجرد بارون .. »

صاحت (جين) فى دهشة :

ـ « هل هذا حقيقى ؟ »

قالت (مارى) :

ـ « ألا تعرفين هذا ؟ كانت ستتزوج ابن خالة الدوق .. البارون (دى ريلزيبه) .. لم تكن زيجة موفقة جداً .. »

قالت (جرمين) :

- « لو مات الدوق لانتقلت ثروته وألقابه إلى وريثه البارون .. ما كان ليحدث فارق كبير .. »

نهضت (جين) معلنة أن وقت الرحيل قد حان ، وسألتها :

- « هل ما زلت تنوين الرحيل إلى باريس غدًا ؟ »

- « نعم .. »

هكذا رحلت (جين) و(مارى) بعد الكثير من القبلات والأحضان .. فما أن رحلتا حتى التفتت (جرمين) لـ (سونيا) ، وقالت :

- « لكم أمقت هاتين الفتاتين ! إنهما صعلوكتان ! »

قالت (سونيا) :

- « إنهما ظريفتان .. »

- « ظريفتان ؟ إنهما تتحرقان حسدًا لى .. وإن كان معهما الحق فى ذلك .. »

ووقفت تتأمل نفسها فى إعجاب فى إحدى المرايا المعلقة ..

* * *

الفصل الثانى

وصول آل (شاروليه)

ظلت (سونيا) لفترة عاكفة على كتابة الدعوات ووضعها فى المظاريف ، بينما (جرمين) تدور فى الغرفة .. تطالع مجلة .. تقرر هذا أو ذاك .. فقط لتنهض بعد ثانية لتصلح لوحة على الحائط .. وتسأل مائة سؤال تافه لا يستحق الإجابة عنه .. بينما طيلة الوقت ترتفع كومة المظاريف ..

انفتح الباب وظهر (ألفرد) قائلاً :

ـ « سيدان يرغبان فى مقابلتك يا آنسة .. »

صاحت (جرمين) :

ـ « آه .. آل (دو بوى) .. دعهما يدخلان .. »

ـ « لم يذكرا اسميهما على كل حال .. وهل من تعليمات لـ (فيكتوار) فى باريس يا آنسة ؟ إننا سنتحرك الآن بالقطار لأن المسافة طويلة .. لن نصل هناك قبل التاسعة صباحًا .. هكذا نجد الوقت الكافى لإعداد المنزل لك عندما تصلين مساء غد .. لقد حزمنا كل شىء والأثاث الثقيل فى طريقه للمحطة فعلاً .. »

شكرته واتجهت لتجلس على المقعد المجاور للنافذة .. تجلس فى وضع تمت دراسته بعناية بالغة ليجمع بين الفتنة والعظمة ..

أرجعت رأسها للخلف فى وضع فاتن وفتحت عينيها .. هنا قالت فى دهشة :

- « لم هذا ؟ »

سألتها (سونيا) دون أن ترفع عينيها عما تكتبه :

- « لم ماذا ؟ »

أشارت لأحد مصراعى النافذة ، وقالت :

- « لقد اختفى أحد ألواح النافذة الزجاجية .. كأنه قُطع .. »

وحدقت الفتاتان فى الفجوة التى صنعها اللوح المختفى ..

- « ألم تريها من قبل .. »

- « نعم .. لابد أن الزجاج المحطم سقط للخارج .. »

هنا دخل رجلان أحدهما قصير ممتلئ فى الخامسة والخمسين ، أحمر الوجه أصلع الرأس له عينان لا تكفان عن الفرار من لقاء أى عينين أخريين .. خلفه شاب نحيل أسمر .. وبرغم الاختلاف الواضح بينهما فقد كان كل شىء يشى بأنهما أب وابنه ..

نهضت (جرمين) فى نوع من الدهشة .. هذان لم يكونا آل (دو بوى) أصدقاءها ..

دنا منها الرجل الأكبر سناً وانحنى ، وقال :

- « أنا السيد (شاروليه) .. منتج خمور متقاعد .. صاحب أراض فى (رينيه) .. أقدم لكما ابنى .. لقد جئنا هذا الصباح .. »

سألت (سونيا) :

- « هل أطلب الشاى ؟ »

فهمست (جرمين) بحدة :

- « لا ! »

ثم سألت الأب :

- « وما هو هدف هذه الزيارة ؟ »

- « جئنا لتقابل أباك .. لكننا عرفنا أنه غير موجود .. لم نستطع أن نحرم أنفسنا من مسرة لقائك .. »

تبادلت الفتاتان النظرات فى حيرة ..

قال الشاب وهو يجلس :

- « يا له من قصر منيف يا أبى ! »

قال الأب :

- « هو كذلك يا بنى .. هو كذلك .. »

واسترخى الرجل للوراء ، ودس إصبعيه فى فتحتى صديرى بذلته ، وقال :

- « قرأنا ذلك الإعلان فى الجريدة عن أن مسيو (مارتن) يرغب فى بيع سيارته ذات المحرك .. وكان ابنى يرغب دومًا فى عربة بمحرك .. عربة لا يجرها حصان .. يقال إنها تعادل ستين حصانًا فى قوتها .. »

قالت (جرمين) :

ـ « لدينا بالفعل عربة بمحرك قوتها ستون حصانًا لكنها ليست للبيع وما زال أبى يستعملها حتى اليوم .. لكن هناك سيارة أخرى قوة مائة حصان .. »

ثم نهضت تبحث فى ألبوم الصور عن صورة السيارة قوة مائة حصان الخاصة بالأسرة .. فما كادت الفتاتان تديران ظهريهما حتى خرجت يد الشاب (شاروليه) بسرعة لسان الحرباء لتطبق على التمثال الصغير الموضوع على المدفأة وتدسه فى جيبه ...

كان (شاروليه) الأب يراقب الفتاتين ، وبرغم هذا لاحظ ما قام به ابنه ، فقال فى غيظ :

ـ « أعده لمكانه يا أحمق ! »

نظر له الشاب شذرًا .. فعاد الأب يقول :

ـ « عليك اللعنة ! أعده ! »

هكذا عاد التمثال لموضعه بذات السرعة ..

عادت الفتاة بالصورة فثبت الأب نظارة من طراز (بنس نيه) الذى يضغط على الأنف وتفحص الصورة ، ثم قال :

ـ « مناسبة .. كم تطلبون ثمنًا لها ؟ »

ـ « لا علاقة لى بهذه الأمور .. يمكنكما طلب أبى وهو سيناقش الأمر معكما .. »

نهض مسيو (شاروليه) وشكرها على الوقت .. وقال إنه سيتصل بالأب ..

لما انصرف وقفت (جرمين) فى النافذة تتساءل :

- « أية مخلوقات تلك ؟! أنا مندهشة بسبب لوح الزجاج المفقود هذا .. ومندهشة لأن (جاك) تأخر برغم أنه قال إنه آت بين الرابعة والنصف والخامسة .. »

- « لكنها لم تصر الخامسة بعد .. »

- « نعم .. ولكن لماذا تضيعين وقتك ؟ لم لا تنهين هذه الدعوات ؟ »

- « لقد انتهت تقريبًا .. »

- « تقريبًا تختلف عن تمامًا .. هلمى .. »

عادت (سونيا) للمنضدة وقد احمر وجهها قليلاً تعبيرًا عن تأثير فظاظة (جرمين) معها .. بعد ثلاث سنوات من العمل مع (جرمين) صارت ملمة بطباع المليونيرات .. فلم تعد تنفعل ..

ووقفت فى النافذة ترمق الطريق الخالى :

- « حقًا تأخر الدوق كثيرًا .. »

قالت (سونيا) :

- « سمعت أنه سيمر على آل (رزلبيه) .. من الغريب أن علاقته لم تتبدل مع البارون (دى رزلبيه) برغم موضوع الزواج السابق هذا .. »

- « من قال هذا ؟؟؟ لقد رأيتهما يتشاجران فى حفل ، وقد تبادلا عبارات الوداع بطريقة غاية فى الفظاظة .. »

هنا بدا التوتر على وجه (سونيا) وصرخت فى رعب :

- « المبارزة ! المبارزة التى يخوضها مسيو (دى رزلييه) الآن ! »

هنا هتفت (جرمين) وقد تبدل وجهها :

- « ماذا ؟ أنت لا تظنين أن الطرف الآخر للمبارزة هو الدوق .. (جاك) نفسه !! »

ثم فكرت فى الأمر ، وصاحت :

- « لكن .. هذا محتمل جدًا .. بل هو مؤكد ! »

صاحت (سونيا) :

- « هذا فظيع ! تخيلى أن يحدث شىء له ! »

قالت (جرمين) فى فخر :

- « برغم هذا .. فمن أجلى أنا يبارز الدوق غريمه .. »

لكن (سونيا) كانت تنظر لها من دون أن تراها ، وكان وجهها شاحبًا كالورق .. كانت (جرمين) تطير بفكرة أن دوقًا نبيلاً يخوض مبارزة من أجلها هى .. هذا كان يفوق أكثر أحلامها جموحًا ..

قالت (سونيا) فى رعب :

- « إنه يبارز سيدًا من سادة السيف .. مبارزًا لا يشق له غبار .. أنت قلت هذا بنفسك .. ولا شىء يمكن عمله .. »

لكن (جرمين) لم تسمعها .. كانت تنظر لصورتها في المرآة في إعجاب ..

اتجهت (سونيا) للنافذة وراحت تنظر في لهفة .. فجأة صاحت منادية :

- « مدموازيل (جرمين) .. تعالى وانظرى ! هناك فارس قادم ! »

- « نعم .. ولكم يجرى بسرعة ! »

- « إنه هو .. الدوق !! »

- « هل أنت واثقة ؟ »

- « بالتأكيد ! »

قالت (جرمين) في رضا :

- « حسن .. لقد جاء في وقت مناسب للشاى ! يعرف كم أمقت الانتظار .. »

ورأته (سونيا) وهي ترتجف يرمح بجواده عبر المنحدر الواصل إلى الشرفة التي تقفان فيها ..

* * *

الفصل الثالث

طريقة (لوبين)

تراجعت (سونيا) بسبب مشاعر الذعر التى استبدت بها ، فاستندت على منضدة الشاى وهى تلهث بسرعة ، محاولة أن تدارى دموع الارتياح . فلم تر الدوق يركض بحصانه ويترجل ثم يسلم اللجام إلى السايس .. وكانت الدموع فى عينيها عندما جاء الدوق إلى النافذة .

صاح فى صوت مرح رنان :

- « لو كان هذا الشاى لى ، فأنا أرغب فى القليل من القشدة وثلاثة قوالب من السكر .. »

ونظر فى ساعته ، وقال :

- « الخامسة بالضبط .. هذا جيد .. »

وانحنى وأمسك بيد (جرمين) فلثمها فى افتتان ..

لو كان قد خاض مبارزة فلا توجد علامات على ذلك .. كانت اللامبالاة تغمره كأنه رجل لا يفكر إلا فى الشاى وواجب اللياقة .. ناولته (سونيا) قدح الشاى ويدها ترتجف حتى أن الملعقة راحت ترن فى الفنجان ..

سألته (جرمين) :

- « هل كنت فى مبارزة ؟ »

قال فى دهشة :

- « ماذا ؟ هل عرفت ؟ »

سألته (سونيا) فى قلق :

- « معاليك لست جريحًا ؟ »

قال باسمًا :

- « ولا خدش ! »

هنا قالت (جرمين) فى خشونة :

- « هلا تكرمت بالعودة لبطاقات الدعوة هذه يا (سونيا) ؟ »

ثم سألته :

- « هل كنت فى مبارزة من أجلى ؟ »

سألها فى نوع من السخرية الخفيفة مما أثار غيظها :

- « هل كان هذا يسعدك ؟ »

- « نعم .. لكن أعتقد الآن أنك لم تقاتل من أجلى .. » .

ـ « كان السـبب طفوليًا .. كنت متعكر المزاج وقال (رزلييه) شيئًا ضايقنى .. »

قالت فى إحباط :

ـ « إذن لم أكن أنا السبب .. وما دمت لست السبب فما كان الأمر ليستحق مبارزة .. »

قال فى مزيد من السخرية :

ـ « نعم .. لكن لو متُّ لقال كل واحد إننى قُتلت بسبب الآنسة (جرمين) .. هذا سيكون جميلاً كما ترين .. »

ـ « وماذا عن (رزلييه) ؟ »

ـ « المسكين ! سوف يظل فى الفراش ستة أشهر قادمة ! »

وضحك فى مرح ..

كانت (سونيا) تختلس له النظر من وراء ظهر مخدومتها .. كانت تلتهم ملامحه الحساسة التى تتغير مع كل كلمة يقولها .. لقد أخرج علبة مغربية من جيبه ، وفتحها قائلاً لـ (جرمين) :

ـ « منذ أسابيع لم أقدم لك هدية .. »

ومن العلبة أخرج قلادة فيها لؤلؤة ، وناولها لها فصاحت :

ـ « يا للروعة ! »

ارتدتها ووقفت أمام مرآة تتأمل نفسها فى إعجاب .. لكن التأثير لو أردنا الصراحة لم يكن محببًا .. لم يضف جمالها شيئًا لجمال اللؤلؤة .. هذا ما لاحظته (سونيا) والدوق معًا ..

نظر الدوق لعنق (سونيا) الأبيض فالتقت عيناهما واحمر وجهها ..

عرفت أنه يفكر فى الشىء ذاته .. كانت هذه اللؤلؤة لتكون أجمل لو ارتدتها هى ..

ثم أبدى دهشته من كومة الدعوات التى تعدها (سونيا) ، وطلب منها أن تعزف على البيانو لحنًا لـ (جريج Grieg) قائلاً :

ـ « سمعتك تعزفينه البارحة . كان رائعًا .. لا أحد يقدر على عزف (جريج) مثلك .. »

قالت (جرمين) :

ـ « معذرة يا (جاك) .. لكن المدموازيل لديها ما يشغلها .. »

ـ « خمس دقائق .. أتوسل لك .. »

ـ « ليكن .. لكن هناك أشياء يجب أن نتكلم فيها .. »

ـ « ما هى ؟ »

ـ « اتصلت (فكتوار) من باريس لتقول إننا تلقينا هدية هى فتاحة خطابات ومحبرة .. »

صاح الدوق فى مرح أفزعهما :

- « مرحى !! »

- « أنت تتصرف كالأطفال .. أقول لك فتاحة خطابات فتهلل .. يبدو أنك لا تقدر قيمة الأشياء .. أليس بوسعك أن تكون جادًا بصدد أى شىء ؟ »

- « أحسب نفسى أكثر الرجال جدية فى أوروبا .. »

- « طريقتك فى السخرية سوف تدفعنى إلى أن أكرهك .. »

- « أرجو أن تؤجلى هذا إلى ما بعد الزواج يا عزيزتى ! »

ثم راح يتأمل اللوحات المعلقة لأسلافه .. وقال :

- « من الغريب أنكم أبقيتم كل هذه الصور المملة ونزعتم صورتى عن الجدار .. »

نظرت له (جرمين) فى دهشة ، وقالت :

- « لكننا أخبرناك بهذا يا (جاك) منذ ثلاث سنوات ؟ كل صحف باريس كتبت عن الموضوع .. »

- « أخبرتمونى بماذا ؟ لقد كنت وقتها فى القطب الجنوبى بعيدًا عن أى أخبار .. »

- « لقد سُرقت اللوحة الخاصة بك ! »

ـ « سرقت ؟ كيف ؟ »

ـ « سأريك .. »

ثم أزاحت الستار كاشفة عن البقعة التى كانت اللوحة معلقة عليها .. وعلى الجدار كانت هناك عبارة مكتوبة بالطبشور الأزرق :

أرسين لوبين

كرر الاسم مفكرًا ، فقالت (سونيا) :

ـ « هذا توقيعه .. إنه دائمًا يفعل الشىء ذاته .. »

تساءل الدوق :

ـ « لكن من هو ؟ »

تساءلت (جرمين) فى نفاد صبر :

ـ « أرسين لوبين ؟ بالتأكيد أنت تعرف من هو (أرسين لوبين) .. اللص الأكثر غرابة أطوار . الأكثر جرأة فى فرنسا .. لقد حير الشرطة طيلة عشر سنوات .. لقد تغلب على (جانيمار) و(هولملك شيرز) المخبر البريطانى العبقرى(*) .. باختصار هو لصنا القومى .. »

ـ « وكيف يبدو ؟ »

ـ « لا أحد يملك أدنى فكرة .. إنه سيد التنكر وقد تناول العشاء مرتين فى السفارة البريطانية ذاتها .. »

(★) طبعًا هذا جناس تصحيفى Anagram على اسم (شيرلوك هولمز) .

- « وكيف عرفوا أنه فعل ذلك ما دام لا أحد يعرفه ؟ »

- « لأنه اختفى فى المرة الثانية ومعه كل مجوهرات زوجة السفير .. مكان المجوهرات ترك بطاقته وعبارة تقول : هذه ليست سرقة بل هى تعويض .. فأنتم قد أخذتم منا مجموعة (والاس) .. »

قالت (سونيا) فى حماس :

- « وقضية مصرف (داراى) .. لقد كان مدير المصرف يستلب أموال المودعين الفقراء لنفسه .. قام (لوبين) بالسطو على بيت الرجل وجرده من كل مليم ، ثم قام بتوزيع ما سرقه على عملاء المصرف الفقراء .. »

- « لكنكما لا تتحدثان عن لص .. بل عن محسن محب للبشر ! »

ثم فكر الدوق قليلاً ، وقال :

- « لو فكرنا فى الأمر لوجدنا أن سرقته لصورتى - بصرف النظر عن جمال ملامحى - لم تكن لتصلح ضمن أعمال هذا اللص البارع .. »

قالت (جرمين) :

- « لو افترضت أنها سرقها من أجل جمال منظرك فأنت مخطئ .. الحقيقة أنه سرق كل مقتنيات أبى .. »

نظر لها فى دهشة ثم جلس ، وقال :

ـ « سرق مقتنيات أبيك ؟ لكن أباك يحرسها أفضل مما يحرسون مصرف فرنسا .. »

ـ « نعم .. لهذا استحقت السرقة ! »

ـ « أفترض أنه استعان بشريك من داخل البيت ! »

ـ « نعم .. »

ـ « ومن هو ؟ »

ـ « أبى نفسه ! »

ـ « أنا لا أفهم شيئًا .. »

قالت (جرمين) :

ـ « اصبر .. (سونيا) .. هاتى الخطاب الذى وصل أبى .. »

نهضت (سونيا) إلى مكتب فاخر من طراز (شيندال) يقف بين قطعتين من الأثاث الإيطالى وهو ذوق متناقض يذكرك بمحلات العاديات .. كان تناقض قطعِ الأثاث ـ برغم جمالها ـ يشعرك بأن كل قطعة تستلب جارتها شيئًا من جمالها ..

أخرجت خطابًا من الدرج وناولته للدوق ففتحه ليقرأ .. كان الخط غريبًا منمقًا .. خط رجل يعرف بالضبط ما يريد قوله ، ويقوله باقتصاد ودقة ..

« .. سيدى ..

« اغفر لى أن أكتب لمن لا يعرفنى .. لكنى أفترض أنك على الأقل تعرف اسمى .. هناك بضع لوحات لـ (جينسبورو) فى غرفة معيشتك تمنحنى سرورًا لا حد له .. هناك لوحات لـ (جويا) تروق لى كذلك .. لكنى قبل كل شىء معجب بالتاج الذى ابتعته فى المزاد المقام على تحف الماركيز (فيرونيى) .. التاج الذى كانت تلبسه الأميرة (دو لامبال) .. خاصة مع ما يثيره هذا التاج من ذكريات بعضها أليم بالنسبة لشاعر يعشق التاريخ لذا أتوسل لك يا سيدى أن تحزم هذه التحف وترسلها لى – مع دفع مصاريف الشحن – وإلا اضطررت إلى أن آخذها بنفسى مساء الخميس السابع من أغسطس .

« أرجو أن تغفر لى ما أسببه من إزعاج ..

المخلص

أرسين لوبين »

« ملحوظة : بما أن الصور بلا غطاء زجاجى ، فإننى أرجو أن تقوم بهذه الخدمة لى وتثبت لها زجاجًا .. أعرف أن جمال الصورة ينقص كثيرًا لدى رؤيتها من وراء زجاج ، لكن يجب علينا أن نقبل التنازل عن بعض بهجتنا من أجل خلود هذه الأعمال الفنية .. هذا ما تطالبنا فرنسا به .. »

ضحك الدوق من قلبه وقال :

ـ « هذا ظريف جدًا .. لابد أن أباك ضحك من قلبه .. »

ـ « ضحك ؟ ليتك رأيت وجهه ساعتئذ .. »

ـ « لكن ليس إلى درجة أن يرسل هذه التحف لعنوان لوبين .. »

ـ « لا .. لكن إلى درجة أنه ذهب إلى رئيس الشرطة وطلب رأيه .. زوده الرجل بعريف وستة رجال شرطة .. وقد وزع الرجل رجاله لحراسة اللوحات ، وكان الاتفاق أن يصلوا بالقطار متأخرًا حتى لايحسب اللصوص حسابهم .. وفى الحادية عشرة أخلدنا للنوم مع وعد للعريف بأننا لن نتحرك لو اشتبك رجاله مع اللصوص .. لم أستطع النوم لفترة طويلة لكن عندما فعلت ذلك نمت طويلاً جدًا .. فى الصباح أيقظت أبى و(سونيا) وهرعنا لغرفة المعيشة .. ثم .. »

ـ « ثم ماذا ؟ »

ـ « اختفى كل شىء ! »

ـ « وحتى تاج الأميرة ؟ »

ـ « لا .. هذا كان فى خزانة فى مصرف فرنسا .. »

ـ « وكيف فعل هذا ؟ هل خدر العريف ورجال الشرطة أم قتلهم ؟ »

- « عريف ؟ لم يكن هناك عريف ولا رجال شرطة .. كان العريف هو (لوبين) .. لقد توقف رجال الشرطة فى حانة قرب المحطة ليشربوا شيئا .. فى الصباح وجدهم أحد الفلاحين فى الغابة غائبين عن الوعى نائمين كألواح الخشب .. لا يعرف صاحب الخان من ومتى دس لهم المنوم فى الشراب ، لكنه يذكر أن راكب سيارة بمحرك توقف وأصر على دعوة الجنود للشراب .. بعد هذا أصر على اصطحابهم فى سيارته .. من الواضح أنه حملهم إلى الدغل وألقاهم هناك .. »

قال الدوق فى انبهار :

- « ما أبرعه من رجل ! »

- « والمشكلة أنه على الأرجح بقربنا الآن ! »

- « ماذا ؟ »

- « أنا لا أمزح .. هناك أشياء غريبة تحدث .. هناك من نقل هذا التمثال الصغير من موضعه ليضعه فوق البيانو ، وبرغم هذا لم يمسسه أحد .. هناك من نزع لوح زجاج من هذه النافذة ! »

قال الدوق :

- « يا للشيطان ! »

* * *

الفصل الرابع

الدوق يتدخل

نهض الدوق إلى النافذة وتفقد الزجاج المحطم ، والعشب ثم عاد للغرفة قائلاً :

ـ « هذا غريب فعلاً .. هذا اللوح لم يتهشم بل انتزع من موضعه ، وإلا لوجدنا الزجاج على العشب .. يجب إنذار أبيك ليراقب كنوزه .. »

ـ « قلت لك إن (أرسين لوبين) فى الجيرة .. »

قال لها باسمًا :

ـ « (أرسين لوبين) رجل بارع .. ليكن .. لكنه ليس اللص الأوحد فى فرنسا .. »

ـ « لكنى أعرف أنه هو .. »

ـ « حاشا لله أن أعارضك .. إن حدس الأنثى هو حدس الأنثى .. لا يمكن أن نشك فيه .. »

هنا ظهر خادم يبلغ (جرمين) أن سيدين يرغبان فى مقابلتها ..

ـ « هل تفتح الباب بنفسك يا (فيرمين) ؟ »

- « نعم يا آنسة .. لم يعد هناك سواى ليقوم بهذا .. كل الخدم قد اتجهوا للمحطة فلم يبق سواى وزوجتى .. هل أسمح للسيدين بالدخول ؟ »

سمحت له بذلك ، وهنا فوجئت على الباب بآل (شاروليه) من جديد .. الأب والابن يحييانها .. لكن معهما كان شاب ثالث .. أشار له الأب ، وقال :

- « ابنى الثانى .. إنه يملك صيدلية .. »

قالت (جرمين) :

- « معذرة يا سادة .. لكن أبى لم يعد بعد .. »

لكن الرجل جلس مع ابنيه ، وقد بدا عليهم سمت القوم الذين جاءوا ليبقوا فترة طويلة .. كانت (جرمين) فى حيرة من هذا الاقتحام ، لكن الخادم جاء بضيف جديد اتضح أنه ابن الرجل الثالث !

قال الأب فى فخر :

- « هذا ابنى الثالث (برنار) .. وهو الذى سيدير البار .. »

من جديد عاد الخادم لكن ليعلن قدوم السيد .. هكذا تنفست (جرمين) الصعداء وطلبت من الرجال أن يصحبوها للقاء أبيها لمناقشة سعر السيارة .. تأخر الابن الثالث (برنار) ليتأمل إحدى التحف الموضوعة فى القاعة ، ثم بخفة النمر أخفاها ..

هنا وثب الدوق بسرعة عبر القاعة ليمسك بذراع الفتى :

ـ « كلا .. لن تفعل هذا يا صديقى الشاب ! »

صاح الفتى وهو يحاول التملص من قبضته :

ـ « لن أفعل ماذا ؟ »

ـ « أنت سرقت علبة سيجار .. »

ـ « لا شىء من هذا .. »

مد الدوق يده فى الكاسكيت الذى يحمله الفتى ، وفتش فيه ثم أخرج علبة السيجار .. ووضعها أمام عينيه .. أصيب الفتى بالهلع وبدا كأن عينيه ستغادران المحجرين :

ـ « كا .. كانت غلـ .. غلطة .. »

هنا مد الدوق يده فى ياقة معطف الفتى ، وثناها ليخرج منها العلبة المغربية ، وقال :

ـ « هل هذه كذلك غلطة ؟ »

هنا ركع الفتى على ركبتيه باكيًا وراح يتوسل :

ـ « اغفر لى ! لا تخبر أحدًا بهذا ! اغفر لى ! »

وراح يبكى ..

وقف الدوق ينظر له فى احتقار وحيرة ، وهو يعبث فى أطراف شاربه .. ثم بدا فجأة كأنه توصل إلى القرار السليم بسرعة البرق ..

- « ليكن .. والآن اغرب عن وجهى .. »

وألقى به خارج القاعة ..

ثم أغلق الباب ونظر إلى (سونيا) .. وقال :

- « هذا الفتى تجاوز الحد .. هل رأيت ؟ أمام عيوننا ! والقلادة كذلك .. كانت لتغدو خسارة فادحة لو سرقها بهذه السهولة .. »

ثم نظر لها .. فى نظرته كان شىء من الإعجاب والرقة ..

ساد الصمت ، ثم سألها :

- « أنت غير سعيدة هنا على الإطلاق . أليس كذلك ؟ »

نظرت له فى ارتباك ، وقالت :

- « أنا ؟ لم ؟ »

- « هذا الشحوب وتلك النظرة فى عينيك .. فيك شىء يذكرنى بالطفل الذى أرغب فى حمايته .. هل أنت وحيدة بلا أهل ولا أصدقاء ؟ »

- « نعم .. »

- « لا أتكلم عن فرنسا .. بل عن بلدك الأصلى .. روسيا .. »

- « لا أحد .. أبى كان ثوريًا ومات فى سيبيريا وأنا طفلة .. فرت أمى إلى فرنسا وماتت وأنا فى سن عامين .. »

- « لابد أن هذا صعب .. »

- « ليس تمامًا .. لكن أسوأ شىء فى الموضوع - ولا تسخر منى - هو الشعور بأنك لا تتلقى خطابات أبدًا .. لا تمسك بمظروف عليه خط شخص يهتم بك وتعرفه .. »

هنا انفتح الباب لتدخل (جرمين) صائحة :

- « أنت مستحيلة يا سونيا ! قلت لك أن تحملى حقيبتى الجلدية .. والآن أفتح الدرج فماذا أجد ؟ حقيبتى الجلدية ! »

قالت (سونيا) فى حرج :

- « آسفة .. »

- « لا أرى فارقًا بينك وبين ضيوف هذا البيت .. أنت اللامبالاة مجسمة .. »

قال الدوق :

- « أرجو أن تخففى لهجتك قليلاً يا (جرمين) .. »

هنا قالت له :

- « لا تؤاخذنى يا (جاك) .. إن لك عادة معينة فى الاهتمام بشئون البيت .. منذ جئت أنت وأنا عاجزة عن أن آمر أيًا من خدمى بشىء .. »

ثم غادرت الغرفة وصفقت الباب خلفها ..

هنا اقترب الدوق من سونيا ، وبحركة سريعة بلا تفكير أمسك بيدها وقبلها .. عصفت بوجهها موجة من اللون الوردى فتلاشى اللون الأبيض منه .. وقفت للحظة كأنما قدت من صخر ، ووضعت يدها على قلبها ..

ثم بخطوات مسرعة ركضت إلى الباب .. توقفت هناك .. استدارت ونظرت له ..

ثم اختفت ..

* * *

الفصل الخامس

خطاب من لوبين

وقف الدوق ينظر إلى ثلاثة المجتمعين فى الحديقة .. فى الوسط كان المسيو (جورناى مارتين) وهو رجل مترهل بدين ضخم .. له ذات احمرار وجه مسيو (شاروليه)، وإن ضاعف هذا التأثير بياض سالفتيه .. وما بدا غريبًا للدوق أن للرجل عينى آل (شاروليه) المتقاربتين حتى أن من لا يعرفهما قد يحسبهما قريبين ..

كان المليونير يصيح ويشوح بذراعيه .. وسمعه الدوق يقول:

ـ « هذا أقل ثمن أقبله .. فإما أن تدفعه أو تنسى الموضوع .. »

ـ « لكنه ثمن باهظ .. »

ـ « باهظ ؟ أتمنى أن أقابل شخصا آخر يبيع سيارة قوة مائة حصان بثمانمائة جنيه .. مستحيل يا سيدى .. أنا أقدم لك سيارة رائعة كلفتنى 1300 جنيه مقابل 800 .. هذا مخجل ! »

ـ « السعر غال .. »

ـ « لكن لا يمكن أن تتكلم من دون أن تجرب العربة .. »

واستدار إلى سائقه الذى وقف يتابع المحادثة وأمره أن يقل هؤلاء السادة إلى المحطة ليروا قدرات السيارة .. ثم أضاف :

- « هلموا يا سادة .. جربوا السيارة .. إلى اللقاء .. إلى اللقاء ! افعل ما يطلبون منك يا (جان) .. »

هكذا ابتعد آل (شارولیه) مع (جان) وقد بدا عليهم الاكتئاب كأنهم كلاب جلدت بالسياط .. فلما ابتعدوا استدار المليونير لخطيب ابنته وضحك ، وقال :

- « سوف يبتاعون السيارة .. لقد ظفرت بهم ! »

قال الدوق بابتسامة خافتة ساخرة :

- « لن يدهشنى أى نصر لك فى مجال البيزنس .. »

- « السيارة عمرها أربع سنوات ولا تساوى غليونًا محشوًا بالتبغ .. ثمانمائة جنيه هى استثمار من الدرجة الأولى .. »

عاد الرجلان إلى الشرفة ومنها إلى القاعة التى بدأ الظلام يغمرها ، من ثم أشعل الخادم مصباحين بعثا فيها نورًا خافتًا ..

قال المليونير :

- « لم تسألنى عن نتيجة لقائى مع الوزير .. سوف يوقع المرسوم غدًا .. اعتبر أنك نلت الوسام .. »

قالها المليونير وهو يفرك يديه السمينتين معًا فى رضا .. فرد الدوق بلا مبالاة :

- « يا للسرور ! »

ـ « بعد هذا الوسام يمكنك ـ وقد نشرت مذكرات جدك وقمت بحملة استكشافية ـ أن تفكر فى الانضمام لأكاديمية العلوم .. »

قال الدوق فى دهشة :

ـ « لكن لا مؤهلات لدى تسمح بأن أكون أكاديميًا .. »

ـ « لا مؤهلات ؟ أنت دوق ! وأنا أرغب فى أن يكون زوج ابنتى حائزًا على (اللجيون دو نـير) وأن يكون عضوًا فى الأكاديمية الفرنسية .. »

هنا دخل (فيرمين) الخادم الغرفة حاملاً رسالة ..

أخذ المليونير الرسالة وتأمل الخط عليها بعناية ، ثم هتف :

ـ « رباه ! »

سأله الدوق وهو يثب فى مقعده :

ـ « ماذا ؟ »

ـ « الخط ! الخط ! إنه نفس الخط ! »

قالها المليونير وألقى بنفسه فى مقعده .. هنا دوى صوت التحطم ورأى الدوق يدين وساقين تطيران فى الهواء إذ انهار المقعد تحت ثقل المليونير البدين ، ثم دوى صوت آخر إذ هوى الرجل على الأرض ..

تعالى ضحك الدوق إذ فقد السيطرة على نفسه ، وأمسك بذراع المليونير وساعده على أن ينهض بسهولة أظهرت أن عضلاته من فولاذ ..

- « هلم انهض .. هذا سخف ! كيف تقول إن هذا نفس الخط ؟ »

- « هو نفس الخط ؟ كيف لى أن أخطئ ؟ »

وفتح الخطاب فى جنون وجرى بعينيه بين السطور ، واتسعت عيناه أكثر فأكثر ، وقال :

- « اسمع .. .

« سيدى ..

« إن مجموعتى الفنية التى بدأت بفضلك تكوينها منذ ثلاثة أعوام لا تحتوى إلا لوحة واحدة لـ (فيلاسكويز) وواحدة لـ (رمبرانت) وثلاثة لـ (روبنز) ..

« ولما كان لديك المزيد من هذه التحف فى بيتك بباريس ، ولما كان من العار أن تبقى عندك ، فإننى أزمع أن أنقلها لملكيتى غدًا صباحًا ..

المخلص

أرسين لوبين »

قال الدوق :

ـ « إنه (يهمبك) ! »

قال المليونير :

ـ « اصبر .. هناك حاشية للرسالة تقول : يجب أن تفهم أنه بما إنك ما زلت تحتفظ بتاج الأميرة (دى لامبال) طيلة الثلاثة الأعوام ، فإننى أنتهز الفرصة لأطلب منك تسليمى هذه التحفة .. »

ثم صاح المليونير وهو يتحسس ياقته :

ـ « اللص ! النصاب ! إننى أختنق ! »

وبدا من لون وجهه الأسود وسقوطه على الأريكة أنه يقول الحقيقة .. صاح الدوق :

ـ « (فيرمين) ! إلى بكوب من الماء ! سيدك مريض ! »

وفك ياقة المليونير وراح يهوى على وجهه بمروحة كانت معلقة على الجدار .. جاءت (سونيا) و(جرمين) ففتحت (سونيا) الخزانة وأحضرت بعض النوشادر ، على حين قذف الدوق كوب الماء الذى جاء به الخادم فى وجه المليونير ..

استعاد الأخير روعه فنهض مسرعًا ليمسك بالخادم ، ويسأله :

ـ « هذا الخطاب .. من جلبه لك ؟ »

ـ « كان فى صندوق الخطابات بالحديقة .. زوجتى هى من جلبه .. »

ـ « نفس ما حدث منذ ثلاثة أعوام ! يا للكارثة ! يا للكارثة ! »

قال الدوق :

ـ « انظر إلى تاريخ الخطاب .. لقد كتب اليوم .. الأحد الثالث من سبتمبر .. »

ـ « نعم .. وما معنى هذا ؟ »

ـ « إما أن هذا الخطاب خدعة ، وإما أن لدينا وقتًا كافيًا لمنع السطو .. اتصل بباريس حالاً .. »

لكن كانت هناك مشكلة .. الهاتف لا يعمل فى هذا الوقت المتأخر من اليوم ، واليوم الأحد حيث لا يوجد تلغراف(*) ..

ساد الصمت وراح المليونير يتصبب عرقًا وهو يحسب خسارته .. ثم راح ينظر فى لهفة إلى الدوق متوقعًا أن يأتى بمعجزة ما .. فجأة صاح الدوق :

ـ « وجدتها ! كم الساعة الآن ؟ »

نظر الدوق فى ساعته وكذا فعلت (جرمين) .. حتى (فيرمين) الخادم راح يكافح حتى أخرج من جيبه ساعة لا تختلف عن ثمرة لفت من فضة .. وتوصل الجميع برغم اختلاف ساعاتهم أن الوقت بضع دقائق بعد السابعة ..

(★) لا تنس زمن القصة ، فقد كان الهاتف والتلغراف والسيارة اختراعات جديدة تمامًا ..

قال الدوق :

ـ « سوف آخذ سيارة وأهرع إلى باريس .. هكذا أبلغها ما بين الثانية والثالثة صباحًا وهذا يعطينى الوقت الكافى كى أبلغ الشرطة قبل أن تتم السرقة .. »

واندفع خارج القاعة ، فقال المليونير لابنته :

ـ « مرحى .. مرحى .. خطيبك رجل واسع الحيلة يا (جرمين) .. من المؤسف أنه دوق .. كان سيكون بارعًا فى تجارة العقارات .. لكنى سأذهب باريس كذلك وآخذك معى .. لن أتركك هنا فلربما يفكر ذلك الوغد فى تجربة حظه مع قصرى ثانية .. »

ـ « لكن معنى هذا يا أبى أن نصل قبل الخدم .. تصور أن نصل إلى القصر الخالى غير المرتب فى قلب الليل .. »

ـ « كلام فارغ .. هيا استعدى وهاتى مفاتيح قصر باريس يا (سونيا) .. »

قالت (سونيا) :

ـ « إنها فى مكتبك .. »

هكذا اندفع المليونير خارجًا ومعه الفتاتان ..

* * *

الفصل السادس

آل شاروليه من جديد

ما إن توارى المليونير ، حتى برز رأس كبير أسرة (شاروليه) من النافذة .. تفقّد القاعة الخاوية وصفّر بنعومة ثم دخل .. وسرعان ما لحق به أولاده و(جان) سائق المليونير ..

أمر (شاروليه) (جان) السائق بأن يراقب الباب الخارجى ، وأمر (برنار) ابنه بأن يراقب مدخل غرفة الجلوس .. بينما قام الرجل ومعه (بيير) و(لويس) بفتح كل الأدراج الموجودة فى القاعة وتفتيشها .. وكان (جان) السائق يردد فى غيظ :

ـ « فقط لو لم تكن هذه العادة السيئة فى إنذار الضحايا قبل السرقة ! كان من الممكن أن تتم السرقة بسهولة فى باريس .. »

قال مسيو (شاروليه) :

ـ « أى مكتب منها ؟ المكان ملىء بالمكاتب ! أريد تلك المفاتيح .. »

قال (برنار) :

ـ « هذه الخزانة الخشبية بالقبضة النحاسية فيها .. هذا هو المكتب .. »

ـ « لِمَ لَمْ تقل هذا من البداية ؟ »

وجرب فتح المكتب لكنه كان مغلقًا .. جاء ابنه (بيير) وهو يحمل عتلة .. ثبتها أعلى الباب ثم هشم الخشب واستسلم القفل القديم .. راح (شاروليه) يفتش الأدراج هامسًا :

ـ « بسرعة .. قبل أن يعود ذلك الوغد البدين ! »

فى الدرج السابع كانت مجموعة من المفاتيح اختطفها .. أغلق الدرج والباب الذى انتزعه (بيير) ثم ركض إلى النافذة ، وكان أولاده و (جان) قد سبقوه على كل حال .

لم يكن قد اجتاز النافذة بعد عندما انفتح الباب ودخل مسيو (جورناى) .. فرأى ظهر الرجل الذى يهم بالفرار .. صاح على الفور :

ـ « لص ! (فيرمين) ! (فيرمين) ! »

وجرى نحوه فاصطدم بالمقعد المهشم ، وهوى أرضًا فى منظر مثير للشفقة .. لكنه جلس على الأرض وراح يصرخ مرارًا :

ـ « (فيرمين) ! (شارميراس) ! (فيرمين) ! (شارميراس) ! »

وهو ينظر للشرفة فى ذعر كأنه يتوقع أن يعود اللص ليقطع حلقه ..

جاء الدوق جريًا وهو يلبس معطف قيادة السيارات والقبعة على رأسه ، وقال :

ـ « هل ناديتنى ؟ »

ـ « ناديتك ؟ بل صرخت ! اللصوص هنا فعلاً .. »

رفع الدوق حاجبيه ، وقال :

- « الأعصاب ! الأعصاب .. »

- « فلتذهب الأعصاب للجحيم ! لقد رأيته كما أراك ! »

قال الدوق :

- « على كل حال لو كنت تثق فى (فرمين) فلا أرى ما يضر فى أن يسهر هنا للحراسة ومعه بندقية .. ربما أصاب ساق أحد هؤلاء الأوغاد من ثم يفر الباقون ، لكنى لا أحب تركك وحدك مع (جرمين) هنا .. »

- « ولا أنا ! لذا لن أجازف .. سوف نذهب إلى باريس حالاً .. معك .. ونترك (فيرمين) و(جان) يقاتلان هؤلاء الأوغاد .. (فيرمين) جندى سابق وقد حارب فى السبعينات .. »

قال الدوق :

- « ليكن .. سوف تأتى أنت مع (جرمين) و(إيرما) بينما أركب أنا السيارة الأخرى مع (سونيا) .. »

جاءت (سونيا) مع (جرمين) ، وبسرعة عرفنا بعض ما حدث فى الفترة الأخيرة ، فاتجهت الأولى إلى المكتب لتخرج المفاتيح ، هنا اكتشفت أن هناك من عبث بالأدراج .. برغم هذا وجدت المفاتيح فى مكانها مما جعل المليونير يعتقد أنه فاجأ اللص فى الوقت المناسب ..

ذهب المليونير ليلبس معطف ركوب السيارة .. هنا دوى الرعد وانهمر المطر مدرارًا ..

صاحت (جرمين) في غيظ ونفاد صبر :

– « هذا ما كان ينقصنا ! سوف تصير الطرقات مستنقعًا .. »

قال الدوق في سخرية :

– « في الواقع تمنيت لو يؤجل هذا اللوبين عملياته إلى الوقت الذي يكون فيه الجو صحوًا .. لكن هذا المطر سيجعل الغبار يستقر على الأقل .. »

هنا عاد المليونير وقد استعد للرحيل .. قال الدوق في دهشة :

– « لماذا لم يأت (جان) بالسيارتين ؟ هل يتوقع أن نذهب للجراج تحت هذا المطر ؟ »

ثم فتح باب الشرفة ونادى المليونير ليقف هناك :

– « تعال وناده أنت فإن لك صوتًا جهوريًا .. »

نظر له حموه في دهشة وهز كتفيه .. وقال :

– « أنت لا تبالي بشيء عندما ترغب في شيء آخر .. »

– « ولماذا أفعل ؟ هلم أيها الشاب العجوز .. ناد ! »

صاح المليونير بأعلى صوته وقد وقف في الشرفة :

– « (جان) ! (فيرمين) ! »

لكنه لم يتلق إجابة ..

* * *

الفصل السابع

سرقة السيارات

كان الظلام دامسًا وراح المطر ينهمر على وجهيهما ..

- « (جان) ! (فيرمين) ! »

لا إجابة إلا الصدى .. استدار إلى الدوق ، وقال فى قلق :

- « أين هما بحق السماء ؟ »

- « لا أدرى .. ربما علينا أن نذهب ونجدهما بنفسينا .. »

- « ماذا ؟ فى هذا الظلام ووسط كل هؤلاء اللصوص ؟ »

- « لو لم نفعل فلا أحد سيفعل .. و(لوبين) يدنو أكثر فأكثر من لوحاتك .. هلم ! »

هكذا مشى الرجلان نحو الإسطبلات .. وهناك دخل المليونير الباب وألقى نظرة .. ثم صاح :

- « الويل لى !! »

فبدلاً من السيارات الثلاث ، كانت هناك سيارة واحدة .. ذات مائة الحصان .. كانت سيارة سباق بمقعدين فقط وعليهما جلس (جان) و(فيرمين) ..

صرخ المليونير :

ـ « ماذا تفعلان هنا أيها الكلبان الكسولان ؟ »

لم ينطق الرجلان ولم يتحركا .. التمع ضوء المصباح على عيونهما الثابتة المحملقة ..

قَرّب الدوق المصباح من السيارة ، هنا اتضح الأمر .. كانا مربوطين كدجاجتين ومكممين .. أخرج الدوق مطواة من جيبه فتحها ومزق حبال (فيرمين) ونزع كمامته فبصق وسعل ، بينما تولى المليونير أمر (جان) ..

زأر (فيرمين) :

ـ « كان هؤلاء آل (شاروليه) .. هؤلاء الأوغاد الملاعين ! »

وقال (جان) :

ـ « هاجمونا من الخلف .. »

ـ « ثم فروا بالسيارتين .. »

قال الدوق وقد تبدلت لهجته الساخرة إلى جدية مطلقة :

ـ « هذا يغير كل الخطط .. علىّ الآن أن أسرع إلى باريس بهذه السيارة .. »

ـ « هى قطعة من الخردة .. لن تنجح .. »

- « بل يجب أن أنجح .. على كل حال المسافة مائتا ميل .. أعتقد أن هؤلاء الأوغاد سيتركون السيارتين فى حقل ما ثم يعودون ، فالغرض من هذه الخطوة منعك من الوصول إلى باريس .. »

قال المليونير :

- « لن تتركنا فى القصر .. فلن أمضى ليلتى فيه ولو دفعوا لى مليونا .. سوف تذهب أنت بهذه السيارة بينما نذهب نحن لباريس بالقطار .. »

- « القطار ؟ اثنتا عشرة ساعة ؟! أنت لست جادًا .. »

- « بل أنا جاد تمامًا .. »

واتجه ليقنع (جرمين) بخطته .. كانت تمقت السفر بالقطار لكنه استطاع إقناعها بموهبته الخاصة .. عن طريق صوته العالى ..

ثم إنه اتجه إلى الدرج ليخرج كتيب مواعيد القطارات وراح يتصفح الأوراق .. ثم هتف :

- « الحمد لله .. هناك واحد فى التاسعة إلا الربع .. »

- « وكيف نصل للمحطة من دون سيارة ؟ »

هنا تذكر أن هناك عربة متاع يجرها حصان .. سوف يذهبون بها للمحطة وسوف يقودها المليونير بنفسه .. ثم أعلن أنه لا توجد عربة طعام فى هذا القطار ؛ لذا عليهم أن يأكلوا وجبة طيبة ، وأن يحملوا بعض الأطعمة معهم ..

هكذا هرعت (سونيا) و(إيرما) لإعداد بعض الأومليت .. فتح الدوق الباب لـ (سونيا) وانحنى لها، فقالت له بصوت هامس :

- « كن حذرًا .. أكره فكرةَ أن تقود سيارةً مسرعةً إلى باريس فى هذا الجو .. أرجوك .. »

هز رأسه لها ثم ودع حماه و(جرمين)، وسرعان ما كان فى السيارة .. وتعالى صوت المحرك ثم بدأ يخفت ويخفت عندما غاب عن العيون ..

بدءوا تناول وجبةً باردةً فى المطبخ، عندما جاء (جان) والبندقية فى يده ليخبرهم أن (فيرمين) قد ربط الحصان إلى العربة .. تسلق المليونير العربة ليجلس خلف المقود، وقال إنه يمقت العربات ذات المحرك .. ثم نظر إلى الخادمين (جان) و(فيرمين) الواقفين على الباب، وقال :

- « البيت مسئوليتكما بما فيه من كنوز .. تشجعا يا بطلى فرنسا ! »

هكذا وجد الرجلان نفسيهما وحيدين بعد رحيل العربة .. اتجها لخزانة السلاح كى يتزودا ببعض البنادق، ثم اتجها إلى المطبخ .. تسلح (جان) بزجاجتى خمر وفطيرة شهية وحمل هذا كله إلى غرفة الجلوس .. ثم عاد للردهة لينتقى رزمة من المجلات .. وأغلق الباب على نفسه ..

ظل (فيرمين) وحده والرعب يستبد بـه .. كـان الظـلام دامسًا .. ثم سمع صوت خطوات من المطبخ فهرع إلى هنـاك .. كـانت زوجتـه تعد له طعام العشاء .. حكى لها المأزق الذى وجد نفسه فيه ، قالت له :

ـ « إذن أغلق باب المطبخ بالمفتاح علينا .. اللصوص لـن يبالوا بالمطبخ .. »

ـ « لكنى وعدت السيد بحماية كنوز قصره .. »

ـ « دع السيد يعن بكنوزه بنفســه .. ليس لديك سوى حلق واحد وأنا لا أنوى أن أفقده .. اجلس وكلْ عشاءك ، لكن أولاً أغلق هذا الباب .. »

أغلق الباب بالمفتاح وجلس يأكل .. كانت شهيته طيبة لكنه لم يستمتع بالوجبة ، وكان يصغى بدقة لصوت أى عبث بالخارج أو فتح للنوافذ ، برغم أنه لم يكن ليسمع أى شىء هنا لكنه واصل الإنصات .. ويبدو أن الرعب جعل حلقه يجف ؛ لذا راح يجرع كأسًا تلو آخر من الشراب ..

بعد العشاء نهضت لتغسل الصحون على حين أشعل غليونـه .. يبدو أن الطعام أعاد له شجاعته ؛ لأنه بدأ فجأة يتكلم عن واجبـه نحو سيده .. عن قسمه أن يموت دون كنوز القصر .. عن مقتـه الشديد للصوص خاصة الباريسيين منهم ..

برغم هذا كله لم يبرح مكانه .. يبدو أن دفء المطبخ أغراه بالبقاء حيث هو .. هكذا راح يصف لزوجته الطريقة المتوحشة التى سيقتل بها أول ثلاثة لصوص ، وكان قد بدأ فى قتل الرابع عندما دوت طرقة عنيفة على الباب الخارجى ..

هكذا تصلب .. فمه مفتوح .. ينظر لزوجته فى رعب وكلاهما عاجز عن الكلام ..

تعالت الطرقات ومعها صراخ كالزئير .. فكانت كل طرقة تجعل أسنانه تصطك أكثر ..

استمر هذا خمس دقائق قبل أن يغمر الفهم وجه مدام (فيرمين) ..

- « أعتقد أنه السيد .. »

همس فى رعب :

- « السيد ؟ »

واستعاد شجاعته فى لحظة ففتح باب المطبخ وركض إلى باب القصر .. فتحه وعلى المدخل رأى المليونير و(سونيا) و(إيرما) و(جرمين) ..

صاح المليونير :

- « ماذا كنت تفعل بحق الجحيم ؟ لماذا تبقينى واقفًا تحت المطر ؟ »

تلعثم (فيرمين) :

ـ « لـ .. لـ .. لصوص .. حسبتكم من اللصوص .. »

ـ « لصوص ؟ هل أبدو لك لصًّا ؟ »

الحقيقة أنه فى هذه اللحظة لـم يكن يبدو كلص .. كان يبدو كثور أسطورى غاضب .. وقد دخل إلى البيت ووراءه (جرميـن) التى ألقت بمعطفها ، وقالت لأبيها :

ـ « لا أفهم .. لماذا لم تستوثق من أن هناك قطارًا فى التاسعة إلا الربع ؟ .. أنا لن أذهب لأى مكان الليلة .. لا توجد قوة فى العالم ترغمنى على ركوب قطار منتصف الليل .. »

قال المليونير :

ـ « لو أمرتك بالذهاب فسوف تذهبين .. أين جدول مواعيد القطارات اللعين هذا ؟ »

وبحث عن الدليل حتى وجده .. ثم نظر لغلافه فرأى أنه مخصص لشهر يونيو من عام 1903 !

هتفت (جرمين) :

ـ « هذا لا يصدق ! لابد أنه من مقالب (جاك) .. »

* * *

الفصل الثامن

الدوق يصل

كان النهار كئيبًا ، وقد بدا قسم الشرطة بجدرانه المغسولة من المطر عاريًا تمامًا إلا من صور المطلوبين .. وقد جلس رجال الشرطة يتثاءبون بعد ما مرت نوبتجية الليل بلا عمل ، وكانوا فى انتظار من يأتى ليأخذ مكانهم ..

فجأة دوت فى الشارع ضوضاء سيارة بمحرك .. توقفت أمام باب قسم الشرطة ، فاستدارت عيون المفتش ورفاقه إلى الباب فى ترقب كسول ..

جاء شاب فى معطف وقبعة ليقف على الباب .. وقال إنه جاء نيابة عن المليونير (جورناى مارتن) لأن هذا الأخير تلقى رسالة من (أرسين لوبين) ..

ما أن ذكر اسم (لوبين) حتى وثب المفتش من مقعده .. وفى لحظة صاروا متيقظين ملأى بالحماس ..

ناولهم الدوق الرسالة التى أخرجها من جيبه تحت المعطف .. نظر لها المفتش ، ثم قال :

- « نعم .. أعرف الخط .. »

ثم راح يقرأ مرددًا :

- « نعم .. نعم .. هذا أسلوبه المعتاد .. »

- « لا وقت نضيعه .. كان مـن المفروض أن أكون هنـا منذ ساعات لكن عطلاً أخرنى .. أخشى أننا تأخرنا جدًا .. »

خارج قسم الشرطة كانت سيارة سباق مغطاة بالوحل .. وحـل أحمر .. وحل أسود .. وحل رمادى .. بدا كأنها جاءت بعينات مـن كل أنواع التربة فى فرنسا ..

ركب المفتش جوار الدوق ، واندفعت السيارة ببطء فى الشارع .. لتسمح لرجلى شرطة بالركض جوارها .. علـى كل حـال مـا كـان بوسعها أن تسرع لأن عجلتها الخلفية قد ثقبت تمامًا ..

وصلوا إلى منزل (جورناى مارتن) الفاخر الذى لا يميزه شىء فى مكانه هذا بين بيوت مماثلة .. كانت كل النوافذ مغلقة بلا أيـة علامة على الحياة أو أن أحدهم يعيش هنا ..

أخرج الدوق المفاتيح من جيبه وجرب فتـح البـاب ، لكنـه لـم يستجب .. جـرب مفتاحًا آخـر بلا جدوى .. تناول منه المفتش المفاتيح وجربها بنفسه .. لم ينفتح الباب ..

قال الدوق :

- « واضـح أنهم أعطونى المفاتيح الخطأ .. لكن .. انتظر .. لقد فهمت .. لقد تم استبدال المفاتيح ! لقد حسب مسيو (مـارتين) أنه ضبط اللص قبل أن يسرق المفـاتيح .. الحقيقة أنـه كـان قد سرقها فعلاً .. »

راح المفتش يقرع الباب .. وأمر رجليه بأن يجربا الباب الخلفى.. قال الدوق :

ـ « هناك بواب كذلك يعنى بالبيت ، ومديرة بيت اسمها (فكتوار) .. وهناك خدم .. لندع الله ألا نجدهم مذبوحين .. »

قال المفتش :

ـ « ليس هذا أسلوب (لوبين) .. لن يكونوا مصابين بأذى بالغ .. »

ـ « إذن دعنا نحطم الباب .. سوف أتحمل المسئولية الكاملة عن هذا .. »

هكذا أمر المفتش ـ الذى بدت عليه أمارات الراحة ـ أحد رجاله بأن يجلب صانع الأقفال .. وعلى حين ذهب الشرطى ، استند الدوق إلى الجدار وراح يدخن .. كان هادئا كأنه لم يقض طوال ليلته يقود سيارة متهالكة فى طريق وعر ..

جاء صانع الأقفال أخيرًا وحاول جاهدًا أن يفتح القفل بلاجدوى .. قال إنه يحتاج إلى نحو ساعة ليفعل ذلك ، لكن من الممكن أن يحطم خشب الباب الآن .. على الفور منحه الدوق موافقته على مسئوليته .. هكذا بدل الرجل معداته وراح ينشر فجوة مربعة فى الباب .. فجوة كان القفل مثبتًا فيها ..

أخرج المفتش مسدسه ودخل .. ووراءه الدوق ..

كان الظلام بالداخل دامسًا ؛ لذا فتح أحد رجال الشرطة مصاريع النافذة ليدخل الضوء .. كان كل شيء في موضعه وما من علامات على حدوث اقتحام ..

بحثوا عن البواب .. دخل أحد رجال الشرطة غرفة جانبية ثم عاد ليقول :

- « مقيد ومكمم الفم .. هو وزوجته ! »

ركض الدوق إلى الطابق العلوى بسرعة .. وفتح باب غرفة الجلوس .. ثم تسمّر على الباب ..

لقد وصل متأخرًا جدًا ..

كانت الغرفة فى حالة فوضى شديدة .. المقاعد مقلوبة وثمة بقع فاتحة على الجدران حيث كانت أفضل صور المليونير معلقة .. أما مصاريع النوافذ فكانت منزوعة .. وكانت هناك منضدة لعب ورق يتدلى نصفها خارج إحدى النوافذ .. وكان هناك سلم يستند إلى إطار النافذة ..

هرع الدوق والمفتش ينظران من خلالها .. لم يكن هناك أحد .. لقد فر اللصوص عبر الحديقة فالسور إلى بناية مجاورة تحت الإنشاء ثم منها إلى ممر جانبى على اليمين ..

نظر الدوق إلى مواضع الصور الخالية على الجدران ، ثم هتف :

- « انظر ! »

فى مكان اللوحة رأى الرجلان بحروف كبيرة اسم :

أرسين لوبين

قال المفتش :

ـ « تلك مهمة (جيرشار) الآن .. لكن يجب أن أحضر قوميسييراً لفحص مسرح الجريمة أولاً .. »

وأمسك بالهاتف وراح يصرخ فى خادمة أن توقظ سيدها الآن .. فلم يتركها حتى تأكد من أنها فعلت وأبلغته بالجريمة ، ثم راح يفتش الغرفتين فلم ير ما يريب .. حتى البصمات لم يجدها ..

راح المفتش ينادى مديرة المنزل :

ـ « فكتوار ! فكتوار ! »

بلا جدوى ..

راحوا يفتحون الغرف واحدة تلو أخرى .. المفتش يفحص الغرف على اليمين ورجاله يفتشون الغرف على اليسار .. فى النهاية وجدوا غرفة فيها فراش غير ممهّد فاستنتجوا أنها غرفتها وأنها كانت تنام هنا ..

قال المفتش :

ـ « أنا أشك فى أنها كانت شريكة للصوص .. »

قال الدوق :

ـ « معلوماتى أن المسيو (مارتن) يثق بها ثقة عمياء .. »

ـ « لن يفعل ثانية .. الخدم موضع الثقة هم الذين يخونون سادتهم .. »

استمر البحث ، فبدا أن اللصوص لم يسرقوا شيئاً غير الغرفتين بالطابق العلوى ، ولم تظهر (فكتوار) ، أما البواب فلا يعرف غير أنه هوجم وزوجته أثناء النوم .. قيدا وكمما .. ولم يقدرا على وصف المهاجمين ..

قال المفتش إنه سيطلب المخبر (فورمرى) .. هنا قال الدوق إنه سمع المليونير يقول إنه يثق بالمخبر (جيرشار) أكثر لأن هذا الأخير يكره (لوبين) كراهية التحريم ، وسوف يلاحقه بكل ما يستطيع من جهد .. اتصل المفتش بالمخفر فوجد أن (جيرشار) غير متاح حاليًا بالتالى ليس هناك سوى (فورمرى) ..

ـ « ومتى تتوقع وصوله ؟ »

ـ « ليس قبل ساعة .. لابد من أن يتناول إفطاره أولاً .. يحب أن يفطر جيدًا قبل التحقيق .. »

قال الدوق :

ـ « الإفطار ! فكرة ممتازة .. الآن ذكرتنى بأننى أتضور جوعًا .. أريد الظفر بوجبة قبل أن يأتى المفتش ، لكن لا أرغب فى ترك البيت .. »

هكذا ذهب إلى البواب ونقده مالاً ، فهرع هذا ليبتاع له شيئًا يفطر به ...

فى الآن ذاته صعد الدوق إلى الحمام حيث أخذ حمامًا منعشًا .. عاد البواب بالطعام وأعد له وجبة طيبة التهمها بشغف ، ثم أرسل فى طلب الحلاق ليحلق له ذقنه .. ثم إنه اختار أفضل أريكة فى غرفة الجلوس وأشعل لنفسه سيجارًا راح يدخنه فى تلذذ ..

سمع طرقة على الباب .. فعرف أن القادم هو مسيو (فورمرى) ..

* * *

الفصل التاسع
(فومرى) يبدأ التحقيق

دخل المفتش الغرفة .. كان رجلاً بدينًا قصيرًا متوردًا ، له شعر منتصب فوق رأسه حتى بدا كفرشاة ثياب عريضة .. ويبدو أنه كان يعتقد أن فرشاة الأسنان قد وجدت لتعطينا فكرة عما يجب أن يكون عليه شارب الرجال .. لذا حرص على أن يبدو شاربه كذلك ..

تم التعارف بين المفتش ودوق (شارميرانس) .. ثم سأل (فورمرى) مفتش الشرطة :

ـ « هل هذا هو مسرح الجريمة ؟ »

ـ « نعم سيدى .. لا يبدو أن هناك غرفًا أخرى مست سوى غرفتى الجلوس هاتين .. لكننا لا نستطيع الحكم قبل قدوم مسيو (مارتين) .. ربما هناك مجوهرات قد سرقت من غرف النوم .. »

قال الدوق :

ـ « أخشى أن مسيو (مارتن) لن يكون قادرًا على ذلك لفترة ، لأنه سيكون فى غاية الإنهاك بعد رحلته من (شارميرانس) إلى هنا .. على كل حال كانت كل تحفه القيِّمة فى هذه الغرفة .. »

قال (فورمرى) :

ـ « أرى أنك كنت مولعًا بها بشدة يا سيدى الدوق .. »

ـ « الواقع نعم .. اعتدت أن أعتبر هذه التحف ملكًا لى لأنها كانت تخص حماى .. ولا شك فى أنه كان سيمنحنى بعضها بمناسبة الزفاف .. »

ـ « خسارة كبيرة .. خسارة كبيرة .. لكننا سوف نستعيد هذه التحف .. تأكد من هذا .. فقط أرجو ألا تكون لمست شيئًا فى الغرفتين .. »

وبالطبع لم يكن من أثر لـ (فكتوار) .. لا توجد آثار مقاومة مما دعا المفتش إلى افتراض أنها شريك للصوص ..

قال الدوق :

ـ « هل (لوبين) يعمل مع شركاء فى العادة ؟ »

قال المفتش فى دهشة :

ـ « (لوبين) ؟ لماذا (لوبين) ؟ .. »

ـ « معذرة .. لقد تلقى حموى خطابًا منه ثم هناك توقيعه هنا .. »

ـ « (لوبين) .. (لوبين) ! لقد سئمت هذا الاسم .. يزجون باسمه فى أية جريمة .. هذان الخطابان قد يكونان مزورين .. إن أساليب الرجل صارت معروفة .. عندما يقيد ضحاياه يستعمل كمامة صفراء وحبالاً زُرقًا .. ثم شعاره (أنا آخذ إذن أنا موجود) على

بطاقة من الورق المقوى .. صدقنى أنا أميل إلى الاعتقاد بأن لصوصًا عاديين ارتكبوا هذه السرقة ويريدون تشتيت انتباهنا بإلصاق التهمة بـ (لوبين) .. »

حكى له الدوق كل شىء ، بما فيه قصة آل شارولیه ومحاولة شراء العربة ، ثم تسلل أحد اللصوص للقاعة وفراره بعد ما بدل المفاتيح ..

ثم بدأ التحقيق ..

لم تكن هناك أية علامات ذات أهمية سوى أثر حذاء أبيض على الأرض .. من الواضح أن أحد اللصوص تركه .. لقد أزال المعتدون كل آثار أقدامهم ، لكن أثر القدم هذا سقط فوقه كتاب على البساط ، من ثم لم يره هؤلاء .. ومعنى أنه أبيض أن اللص كان يمشى فى أرض مغطاة بالجبس .. هذا يشير إلى أنهم كانوا يتوارون فى بيت تحت الإنشاء مجاور لبيت المليونير ..

لم يكن لدى البواب وهو عجوز ستينى ملتح أى شىء يضيفه سوى أنه تعرض للهجوم أثناء نومه ، وأن الهجوم كان عنيفًا .. وأضافت زوجته وهى ملتحية مثله تقريبًا أن أسوأ ما فى الأمر كان الكمامة لأنها منعتها من إبداء رأيها الصريح فى هؤلاء الأوغاد ! وقد التحق الاثنان بالخدمة منذ عام ..

سأل المفتش البواب :

- « ألم تسمع صوت أى شىء ؟ أية مقاومة أو جسد يُجرُ على الأرض ؟ »

- « بلى .. كان هناك كثير من الضوضاء لكنها قادمة من الطابق العلوى .. »

- « عرفت من الأوراق أنك اعتقلت مرتين من قبل .. »

قال البواب العجوز :

- « ما دمت قلت هذا يا سيدى فلن أنكره .. لكنى أقول إن اعتقالى كان مما يشرفنى .. »

- « كيف ؟ »

- « فى المرة الأولى اعتقلت لمدة يوم ، لأننى كنت فى خدمة سيد مهذب ووقفت أهتف فى الشارع : إلى الإضراب العام ! كان هذا فى الأول من مايو .. كان السيد الذى أخدمه هو المسيو (جنليس) القائد الشيوعى البارز .. »

- « والمرة الثانية ؟ »

- « اعتقلت لأننى وقفت أهتف فى الشارع : الموت للأبقار ! وكنت أتكلم عن البوليس يا سيدى ! كنت أعمل لدى المسيو (بوسى رابوتان) نائب الملك ! »

- « لا يبدو لى أن آراءك السياسية ثابتة .. مرة تهتف مع الشيوعيين ومرة مع أتباع الملك .. »

- « أنا مخلص لسيدى دائمًا وأتبنى أى رأى يتبناه ! »

طلب منه المفتش أن ينصرف مع زوجته ، فلما اختفيا قال :

- « هذان الأحمقان يقولان الصدق .. ما لم أكن مخطئًا جدًا .. »

وعاد يواصل التحقيق فى حادث السطو الغامض ..

* * *

الفصل العاشر

(جورشار) يساعد فى التحقيق

قضى المفتش (فورمرى) وقتًا أطول من اللازم فى غرفة نوم (فكتوار) .. وقتًا أطول مما قضاه فى مسرح الجريمة ، وقد خيب أمله أنه لا توجد بقع دم توحى بأن مدبرة المنزل قد قتلت ، لكنه عزى نفسه باحتمال أن يكون اللصوص خنقوها ثم تخلصوا من جثتها ..

كان سعيدًا بفكرة أن يكون الدوق معه وأن يرى براعته فى الاستنتاج .. لهذا راح يتصرف ككلب صيد مدرب ، بل إنه كان يصدر ضوضاء أكبر.

نزل المفتش إلى الحديقة التى بلّل المطر تربتها ليبحث عن آثار أقدام ، ومن الغريب أنه لم يجد الكثير ..

هنا جاء رجل إلى البيت ليحييه رجال الشرطة فى احترام ..

كان رجلاً عادى المنظر بين الأربعين والخمسين .. له فم عديم المنظر وأنف عادى وشعر عادى وأذنان عاديتان .. على رأسه قبعة عادية ويلبس ثيابًا عادية .. فقط كانت عيناه هما الشىء الوحيد الذى أنقذ وجهه من أن يكون عاديًا تقتحمه العين .. كانتا ذكيتين يقظتين تتركان انطباعًا غير مريح فى روح من تقعان عليه .. كأنه ينظر لروحهم مباشرة ..

كان هذا هو كبير مفتشى الشرطة (جورشار) .. رئيس قسم التحرى فى شرطة باريس وعدو (آرسين لوبين) اللدود ..

اقتاده رجال الشرطة إلى غرفة الجلوس التى تمت السرقة فيها، فطلب أن يغلقوا الباب عليه فلا يفتحوه إلا للمفتش (فورمرى) .. وطلب أن يخطروا المفتش فورمرى بقدومه ..

ـ « لا تزعجهم .. فأنا غير ذى أهمية .. »

ـ « كيف يا سيدى ؟ »

ـ « فعلاً أنا غير ذى أهمية .. القضية قضية المفتش فورمرى، وما أنا إلا مساعد له .. »

فما أن انغلق الباب عليه حتى دب فيه النشاط، وراح يفحص كل شىء فى الغرفة .. يفحص مواضع اللوحات وأثر القدم الأبيض على الأرض .. توقيع (لوبين) .. قاس المسافة بين أثر القدم والنافذة، فلم يبد عليه الرضا .. وقف يطل من النافذة مقطب الوجه .. الغريب أنه كان عندما يفكر بعمق تفقد عيناه بريقهما وتصيران أقرب للغباء ..

أخرج عدسة مكبرة وراح يفحص السجادة فى عناية، واقترب من المدفأة، ثم بدأ نوع من الابتسامة يتسرب إلى وجهه .. كأنه قد بدأ يفهم ..

كان غارقًا بعمق فى التفكير عندما تعالت أصوات من الخارج وسمع صوت أقدام .. اتجه إلى النافذة ورفع رجله وانزلق على السلم المستند لها إلى خارج القاعة ..

دخل ثلاثة الرجال القاعة متوقعين مقابلة وجه مألوف .. هنا دهشوا لأنه لا يوجد أحد هنا ..

قال رجل الشرطة الواقف على الباب :

ـ « لقد تركته هنا .. لكنه اختفى .. »

قال المفتش فورمرى

ـ « لا شك أنه نزل على السلم ليبحث فى الحديقة .. إنه يكرر نفس ما فعلناه قبل قدومه وكان بوسعه أن يوفر على نفسه العناء بأن يعرف منا ما عرفناه .. »

قال الدوق :

ـ « عساه يجد شيئًا لم نره نحن .. »

نظر له المفتش فورمرى فى ضيق ، وقال :

ـ « هذا بعيد عن الاحتمال يا سيدى .. لا تتصور كم أن عمل الشرطة يبلغ بقدرتك على الملاحظة حد الكمال .. إننى مستعد لالتهام أى شىء فاتتنى ملاحظته ! »

وانفجر يضحك ، فقال الدوق في سخرية :

ـ « هذه ستكون قضمة كبيرة جدًا ! »

قال المفتش :

ـ « المشكلة مع (جورشار) هي ذلك الوسواس الذي يعانيه بسبب (لوبين) .. لم يعد يرى وراء أية جريمة إلا (لوبين) وهذا يشلُّ تفكيره تمامًا .. لهذا لم يقبض على (لوبين) قط .. بالنسبة لي أرى أنها جريمة سطو عادية انتحلت أسلوب (لوبين) .. (فكتوار) متعاونة مع اللصوص وهذه هي بداية الخيط .. سوف نجدها من ثم تحل القضية كلها .. »

هنا ظهر المفتش (جورشار) من النافذة وألقى التحية على الجميع ..

صاح المفتش (فورمري) :

ـ « ماذا كنت تفعل على هذا السلم خارج النافذة ؟ »

ـ « أصغي ! أحب أن أسمع ما يقال عني عندما أكون مكلفًا بقضية ما ! »

ثم ترجّل داخل الغرفة وصافح الدوق .. وتم التعارف ..

انفتح الباب ودخل (بونافنت) أحد المفتشين الذين جاءوا أولاً من مركز الشرطة ، وفي يده كانت قطعة ممزقة من ثوب .. وقال :

ـ « وجدت هذه على حافة البئر .. تقول زوجة البواب إنها قطعة من ثياب (فكتوار) ! »

قال (فورمرى) :

ـ « هذا هو ما كنت أخشاه .. لابد أن نفتش البئر ونجد من يغوص فيها أو ننزحها لو اضطررنا لذلك .. »

هنا قال (جورشار) فى جدية :

ـ « لا أحسبك مضطرًا إلى تفتيش البئر يا صاحبى .. هل يوجد قط أو كلب فى هذا البيت ؟ »

ونظر إلى الدوق باعتباره يعرف أفضل عن هذا البيت ، فقال الدوق :

ـ « نعم .. هناك قط . رأيت واحدًا على باب البواب .. »

ـ « إذن هو القط من أخذ الخرقة إلى حافة البئر .. »

صاح (فورمرى) فى عصبية :

ـ « لكن هذا سخف .. نحن نتكلم عن جريمة قتل وأنت تتكلم عن القطط ؟ »

ـ « لا أعتقد أن (فكتوار) قتلت .. »

ـ « وهذا الاختفاء ؟ كيف تفسره ؟ »

- « لو كانت اختفت لما حاولت التفسير لكننى أرى أنها لم تختف كذلك ! »

كان يتكلم ببرود وتهذيب .. هنا صاح فورمرى فى عصبية :

- « لم تختف ؟ هل تعنى أنك تعرف أين هى ؟ هل تعنى أنك رأيتها ؟ »

- « بالتأكيد .. وقد رأيتها منذ خمس إلى ست دقائق ! »

- « اللعنة ! أنت لم تفارق الغرفة ! »

- « برغم هذا رأيتها ! »

هنا صاح (فورمرى) :

- « إذن تكلم ! »

ثم سقط منهكًا على الأريكة .. وكان الاستفزاز قد جعل حالته فى غاية السوء ..

مشى (جورشار) إلى المدفأة وأزاح المقاعد التى تسد مدخلها ، ثم أزاح الشبكة المعدنية التى تسدها .. كانت المجمرة الحديدية التى تضم الفحم قد أزيحت جانبًا ، وهناك مرتبة على أرض المدفأة .. فوقها امرأة فى منتصف العمر وعلى فمها كمامة صفراء ، وقد قيدت يداها وقدماها بحبال زرق ..

قال (جورشار) :

ـ « إنها تنام فى سلام .. »

وانحنى والتقط منديلاً وشمه ، وقال :

ـ « كلوروفورم .. ما زالت رائحته فى المنديل .. ساعدنى أيها المفتش وأنت يا (بونافنت) .. من الواضح أنها ثقيلة الوزن .. »

وتعاون الرجال على حمل الحشية خارج المدفأة .. كان هذا مرهقًا لأن المرأة كانت ثقيلة فعلاً .. عندما انتهوا استعاد (فورمرى) أنفاسه المتقطعة ، لكن وجهه ازداد احمرارًا وراحت عيناه ترقصان بلا توقف ، كأنهما خارج سيطرته .. وصاح :

ـ « أنت لم تنظر داخل المدفأة قط يا (بونافنت) ! »

قال المفتش الصغير :

ـ « لا يا سيدى ! »

ـ « كانت هذه غلطة لا تغتفر ! كيف للمرء أن يعمل مع مرءوسين مهملين مثلكم ؟ كيف كان لى أن أراها ؟ »

قال (جورشار) فى هدوء :

ـ « كان هذا بوسعك لو مشيت على أربع ! »

ـ « على أربع ؟ »

ـ « نعم .. على أربع كان بوسعك أن ترى كعبيها .. »

ـ « تلك الشبكة يبدو أنها لم تتزحزح منذ بدء الصيف .. »

ـ « القاعدة الأولى مع (لوبين) هى ألا تثق بالمظهر الخارجى لأى شىء .. »

ـ « لوبين ! »

ثم قرر أن يصمت وعضَّ على شفته السفلى ..

هكذا تعاون رجال الشرطة على حمل المرأة إلى غرفة نوم جديدة .. وذلك إلى أن تفيق من تأثير الكلوروفورم .. وقال (فورمرى) :

ـ « الآن نعيد التفكير فى حلٍّ من جديد .. »

وعقد ذراعيه على صدره وغاب فى تفكير عميق ، على حين راح الدوق و (جورشار) يرمقانه فى صمت ..

* * *

الفصل الحادى عشر

الأسرة تصل

طلب الدوق من المفتش (جورشار) أن يسمح له بمراقبة طريقته المثيرة للاهتمام فى البحث .. ومشى الرجلان فى الحديقة .. كانا متناقضين تمامًا كأنهما صقر يمشى مع خلد .. المحارب والعامل .. الدوق بطريقته الساخرة وملامحه اليقظة وطباع المبارز الخبير ، وعضلاته الحديدية ، والمفتش بطريقته الخمول وصوته المبحوح ، وعجزه عن أن يظهر أيًا من عواطفه على ملامحه .. فقط فى العينين كان الرجلان متماثلين .. نظرة الملاحظ المدقق الذى لايفوته شىء ..

هناك راح المفتش يحكى له عن (لوبين) .. خبير التنكُر الأول .. لقد سمع منه قصة آل (شاروليه) ؛ لذا رجح أن يكون (لوبين) هو المسيو (شاروليه) نفسه .. هذا الرجل يتنكر فلا يمكنك أن تعرفه .. إنه يلبس ويفكر كالشخص الذى يقلده تمامًا ..

فى هذه العملية لابد أنه استعان بعدد كبير من اللصوص ، ومن الممكن أن يكون قد لعب دور أكثر من شخصية .. مثلاً قد يكون هو ذاته من خدم مسيو (مارتين) ..

قال الدوق :

- « من الصعب أن يلعب دور (شارولبه) ودور خادم معًا .. »

- « لم أقل يقينًا إنه (شارولبه) .. تلك نقطة للنقاش فقط .. لا أعتقد أنه يضيع وقته فى سرقة سيارات .. تصور بالمناسبة أننى تلقيت عروضًا بآلاف الفرنكات على سبيل الرشوة من نساء فاتنات .. نساء من طبقتك الثرية النبيلة .. فقط كى أسمح لهن بمقابلة لوبين أو تعرُّفه .. »

- « هذا لا يدهشنى .. النساء لا يتوقفن للتفكير لحظة إذا تعلق الأمر بأحد أبطالهن .. وماذا عنك ؟ »

- « ليت هذا بوسعى ! لو استطعت أن أجد (لوبين) متورطًا فى الحب مع امرأة لتغير الأمر ! على فكرة لقد قبض عليه المفتش (جانيمار) مرتين واستطاع الهرب ! »

عاد الرجلان إلى البيت وجلسا يدخنان ..

فى هذه اللحظة انفتح الباب واقتحم المكان مسيو (جورناى مارتين) .. رأى الفوضى التى خلفها السطو فكوّر قبضتيه فى للهواء ، وصاح :

- « الأوغاد ! »

ثم ركض ليلقى بجسده على أريكة وينفجر فى البكاء ..

قالت (جرمين) فى نفاد صبر :

ـ « هلا كففت عن البكاء يا بابا ؟؟ صوتك خشن كصوت الغراب ! »

ثم التفتت إلى الدوق ، وقالت :

ـ « أعتقد أن نكتتك بصدد مواعيد القطار كانت سخيفة فعلاً يا (جاك) .. أن ترسلنا تحت المطر للمحطة فى الليل وأنت تعرف أنه ما من قطار فى التاسعة إلا الربع .. هذا مخجل .. »

قال لها الدوق فى دهشة :

ـ « لا أعرف ما تتكلمين عنه .. ألم يكن هناك قطار فى التاسعة إلا الربع ؟ »

ـ « نعم .. دليل القطارات كان قديمًا جدًا .. »

ـ « لا تبدو لى نكتة .. على الأقل ليس نوع النكت الذى أفضله .. لقد كان الدليل فى الدرج ولم يخطر لى أن أتفقد تاريخه .. »

هنا انفجر المليونير يصرخ ويندب حظه ، وكان بكاؤه يمزق نياط القلوب ..

ـ « إنه الخراب ! لوحاتى ! »

قال المفتش (فورمرى) :

ـ « سوف نعيد لوحاتك .. هذا وعد .. فقط أعطنا الوقت .. على الأقل لم يمس التاج الخاص بالأميرة (دى لامبال) .. إن الخزانة الموجودة هنا لم تمس ونحن نعرف أنك تحتفظ به فيها .. »

قال المليونير :

ـ « ومن قال إن التاج فى الخزانة ؟ أنا أحتفظ به فى غرفة نومى .. »

قال الدوق باسمًا :

ـ « نحن متأكدون من أن اللصوص لم يمسوا غرف النوم .. »

قال المليونير وهو يخرج مفتاحًا من جيبه :

ـ « هذا يهدئ من روعى بعض الشىء .. الخزانة فى غرفة النوم لها مفتاحان . أحدهما هذا والآخر فى هذه الخزانة التى أمامكم .. »

ثم انفجر فى البكاء من جديد :

ـ « لكنهم سرقوا لوحاتى .. لوحاتى الجميلة ! الاستثمار الأمثل ! سرقونى .. خربوا بيتى ! »

★ ★ ★

الفصل الثانى عشر

لوبين يرسل برقية

اكتشفت (جرمين) أن القلادة التى جلبها خطيبها لها غير موجودة .. هكذا ساد الارتباك خاصة وهى كانت تعتقد أنها معه فى رحلته لباريس ..

سألها المفتش (فيرمرى) عما إذا كانت أشياء قد سرقت منها من قبل، فقالت إنها اعتادت اختفاء أشيائها منذ ثلاثة أعوام تقريبًا ..

هكذا أعلن المفتش (جيرشار) أنه سيقوم بتفتيش الجميع .. وتم استدعاء (إيرما) و(سونيا) وكل من كان مع (جرمين) فى باريس ..

هنا اتجه الدوق نحو معطف (سونيا) الموضوع على الأريكة وتظاهر بأنه يوشك على التعثر، وتحسس الجيب .. شعر بشىء بارز وسط ثنيات المعطف .. هكذا مد يده بخفة وتناول هذا الشىء ودسه فى جيبه ..

قال (جيرشار) لـ (سونيا) إنه آسف لكن لابد من تفتيش حقيبتها ومعطفها ..

قال الدوق :

ـ « يمكنك أن تستبعد (سونيا) من المشتبه بهم .. »

سأله (جيرشار) :

- « منذ متى هى فى خدمة المدموازيل ؟ »

قالت (جرمين) :

- « منذ ثلاثة أعوام .. »

- « أى منذ الوقت الذى راحت فيه أشياؤك تختفى بلا تفسير ! »

كانت (سونيا) فى حالة شديدة من العصبية بينما هم يفتشون حقيبتها .. وعندما أمسكوا بالمعطف لتفتيشه قال لها الدوق :

- « هذا مجرد إجراء روتينى يا (سونيا) فلا تقلقى .. »

لكنها كانت شاحبة كالورقة موشكة على الإغماء ، حتى عندما أسفر التفتيش عن لا شىء ..

هكذا انتقل الرجال للبحث عن شىء آخر فُقِد من البيت .. وبقى الدوق وحده فى القاعة .. مد يده فى جيبه وأخرج الشىء الذى وجده فى معطف (سونيا) .. كان هذا هو القلادة التى أهداها لـ (جرمين) ..

* * *

عادت (سونيا) إلى القاعة فنظر لها الدوق طويلاً ، ثم قال فى دهشة :

- « أنت .. لصة ؟ »

ثم نظر إلى الباب ، وقال :

- « أرجو الا تتكلمى معى ثانية .. كما أرجو ألا تبقى هنا .. »

صاحت :

- « لابد أن رأيك فىَّ صار مرعبًا .. »

- « أرجو أن تخفضى صوتك .. إن (جوشار) ليس بأبله وأعتقد أنه يشك فيك فعلاً .. »

- « وما فى ذلك ؟ لقد فقدت احترام الشخص الوحيد الذى حملت له احترامًا .. »

- « ربما يكون من الأفضل أن نؤجل الكلام إلى أن .. »

- « لا ! لابد من الكلام الآن ! لا أعرف كيف أتكلم .. رباه ! رباه ! هذه الجرمين تملك كل شىء .. أمامى أعطيتها القلادة وسرت بها .. لذا أخذتها منها .. أخذتها .. ولو استطعت لأخذت ثروتها كلها .. لكم أكرهها ! نعم .. »

لم تعد عيناها رقيقتين بل هما تلمعان بغضب وحشى .. وصوتها صار خشنا مليئا بالمقت ..

- « لو لم تكن أنت فى الموضوع .. لهذا أكرهها ! نعم .. ليست هذه المرة الأولى .. لقد سرقتها من قبل .. لعلها المرة العاشرة .. نعم أنا لصة ! »

ثم خفضت عينيها ، وقالت :

ـ « لكن منذ التقت عينانا لم أسرق منها أى شيء قط .. إلى أن رأيتك تعطيها تلك القلادة فلم أتحمل .. »

قال الدوق فى رعب :

ـ « يا للطفلة المسكينة ! »

ـ « اسمع .. هل جربت أن تكون وحيدًا فى العالم من قبل ؟ هل جربت أن تجوع فى هذه المدينة الكبيرة ؟ كنت أتضور لدى رؤية الخبز فى المتاجر .. كانت هناك طريقة واحدة فى هذا العالم للحصول على المال لكنى لم أفعلها .. لا لم أفعلها .. فضلت أن أسرق .. بدا لى هذا أكثر أخلاقية .. اضطررت للسرقة كى أبقى امرأة شريفة .. »

ثم راحت تضحك ضحكة شيطانية لروح تحترق ، وبعدها دفنت وجهها فى كفيها وراحت تبكى .. نظر لها نظرة مفعمة بالشفقة والفهم .. هذه هى باريس التى لا يعرفها والكامنة تحت السطح ..

سمع صوت خطوات فهتف بها :

ـ « بسرعة ! اركضى للغرفة الأخرى وجففى دموعك ! يجب أن تكونى متماسكة ! »

كانت سونيا مدربة منذ زمن على إخفاء مشاعرها ؛ لذا استعاد وجهها رونقه على الفور .. اتجهت لتجلس على أريكة على حين وقف الدوق يشعل سيجارًا ..

هنا انفتح الباب وظهر (جورشار) ونظر لهما بعينين فضوليتين ، فسأله الدوق ضاحكا :

ـ « حسن أيها المفتش .. آمل أن اللصوص لم يسرقوا التاج ! »

ـ « التاج بخير معاليك .. »

ثم استدار لـ (سونيا) ليقول لها :

ـ « كنت أبحث عنك لأخبرك بأنه ليس بوسعك الخروج .. لا أحد سيخرج .. سأكون شاكرًا لو ذهبت لغرفتك ، وسوف ترسل لك وجباتك هناك .. »

لما انصرفت جلس الدوق وحده وعلى وجهه علامات التفكير العميق :

فجأة دوى صوت زئير وحشى واقتحم الحجرة المسيو (جورناى مارتين) وفى يده برقية ، وصاح :

ـ « هى ذى برقية ! برقية من الوغد نفسه ! لقد أحضرها عامل فى مكتب البريد .. »

* * *

أعتذر بشدة عن عدم قدرتى على الوفاء بوعدى بصدد التاج ، فقد كان عندى موعد فى أكاشيا .. أرجو أن تعده لى فى غرفتك الليلة فسوف أسرقه بين الثانية عشرة إلا الربع والثانية عشرة .

بإخلاص

أرسين لوبين

قال المفتش (فومرى) :

ـ « هات البرقية لو سمحت .. »

وقرأ البرقية مرتين ، ثم قال :

ـ « هذا يزيد الأمور تعقيدًا ..إنها القشة الأخيرة ... (جورشار) مجنون بـ (أرسين لوبين) وسوف يقلب كل شىء رأسًا على عقب بسبب هذه البرقية .. رأيى أن (جورشار) أحمق .. لو كان (أرسين لوبين) هنا ليلة أمس حقًا لما منعه شىء من سرقة التاج والبيت خال .. إذن لم يكن هو .. »

هنا انفتحت الخزانة الموجودة فى القاعة ليخرج منها (جورشار) وهو يقول :

ـ « لن تتصور مدى وضوح سماع الصوت فى هذا الطراز من الخزائن ! كانوا يقولون إن جدرانها سميكة جدًا .. »

هتف (فورمرى) فى ذعر :

ـ « لكن كيف خرجت منها ؟ »

ـ « بصعوبة .. لم يكن هذا سهلاً .. »

ـ « وكيف دخلتها ؟ »

ـ « من ظهرها ! أضعف نقاط هذه الخزائن هو ظهرها ، وقد قام اللصوص بعمل فتحة فى ظهرها لم نرها .. هكذا أخذوا ما فيها دون أن يفتحوها ! »

ـ « هل المفتاح الذى يفتح خزانة غرفة النوم موجود فيها ؟ »

ابتسم المفتش ، وقال :

ـ « لا .. لقد سرقوه .. لكنهم تركوا لك هديـة .. شيئًا أفضل من المفتاح .. »

ـ « وما هى ؟ »

ـ « يمكننى أن أطلب منك التخمين .. لكن ها هى ذى هديتك .. »

وناوله بطاقة صغيرة كتب عليها بخط واضح :

أرسين لوبين

★ ★ ★

الفصل الثالث عشر

غلطة فكتوار

بعد الغداء الفاخر الذى أظهر أن المليونير فقد شهيته تمامًا ، بدا أن المفتشين الجمهوريين قد انبهرا بالجو الملكى المسيطر على كل شىء .. مهما كانت آراء المرء السياسية فإن للملكية هيبة فى النفس ، ولم يمنع (جورشار) نفسه من الفخر لأن هذا الدوق النبيل منبهر بأدائه كمفتش بوليس ..

أثبتت تحريات (جورشار) أن السارقين لم ينقلوا أثاث المنزل عبر النافذة كما حاولوا الإيحاء بذلك ، بل رفعوا المسروقات عبر المدفأة لينقلوها فى ثغرة فى الجدار إلى المنزل المجاور الخالى .. لم يكن هناك أحد مختبئ فى ذلك البيت تحت الإنشاء .. بصمة الحذاء الملوثة بالجير وضعوها عمدًا .. لو كانوا قد لوثوا أحذيتهم بالجير لما استطاعوا إزالة كل الآثار من البساط بهذه البساطة ..

ـ « هذه حيلة لخداع المخبرين متوسطى الذكاء مثل (فورمرى) .. »

لقد دخل اللصوص حسب نظريته من باب البيت الأمامى وغادروه عن طريق هذه الفتحة ..

ـ « ما جعل اكتشاف الأمر يتأخر هو أننا لم نتوقع أن تكون هناك فتحة بهذا الحجم .. لابد أنهم رسموا خطتهم منذ زمن ، ولابد أن لديهم شريكًا فى البيت .. »

قال الدوق فى شك :

ـ « الأسرة تثق فى (فكتوار) بشدة .. »

قال (جورشار) فى خطورة :

ـ « وربما (لوبين) كذلك ! »

كان المليونير فى حالة بالغة السوء .. لقد اعتبر أن التاج سرق فعلاً .. ما دام (لوبين) وعد بسرقته فهو مسروق من الآن ..

أصر المفتش (جورشار) على إجراء استجواب آخر لـ (سونيا) ، وهو ما اعترض عليه الدوق بشدة (فهى مجرد طفلة) ، لكن (جورشار) كان مصرًا .. إن تلك السرقات السابقة التى لم يعرف تفسيرها تبدو له ذات أهمية ..

لم يجد الدوق أى وقت سوى لأن ينصح (سونيا) بأن تتجلد وتمسك أعصابها ..

هكذا تم الاستجواب فى غير حضور الدوق .. وعندما انتهى خرجت الفتاة ترتجف ، أما (جورشار) فبدا مقتنعًا بشىء واحد هو أن الفتاة لا تمت بصلة لـ (لوبين) ..

خرج (جورشار) على أن يعود فى السابعة والنصف مساء ، ومر اليوم بلا أحداث ، لكنه تأخر عن موعده مما جعل (فورمرى) يتميز غيظًا وغادر البيت مغضبًا ..

عندما جاء (جوشار) أخيرًا أعلن للدوق أن القضية صارت بالكامل ملكًا له ، وأنه عيَّن رجالاً أذكياء ليساعدوه .. أو على الأقل عين رجالاً يعرفون أسلوبه فى التحقيق ..

قال له الدوق :

- « رجالك يضايقوننى لدى الخروج .. يقولون إنك لم تعط أى تعليمات بخروج أحد .. »

- « أرجو من معاليك أن تغفر لى . لا أستطيع أن أعطى استثناءات وإلا طالب بها الجميع .. لكن بالنسبة لمعاليك أعتقد أن هذه كافية .. »

وأخرج بطاقة تحمل اسمه ، وكتب عليها :

- « أرجو أن تسمحوا لمعاليه بالخروج والدخول متى أراد .. »

هنا دخل الغرفة (بونافينت) :

- « لقد عادت مدبرة المنزل إلى وعيها تمامًا .. »

قال (جورشار) :

- « جميل .. هاتها لى .. »

وجلس الدوق على مقعد مريح بينما وقف المفتش جوار المدفأة .. قال المفتش :

ـ « على الأقل هناك شخص واحد برىء فى هذه القصة .. »

ـ « من هو ؟ »

ـ « المفتش (فورمرى) .. »

هنا انفتح الباب ودخلت (فكتوار) .. كانت امرأة حسنة القسمات ضخمة متوردة .. لها عينان بنيتان لا يبدو أن نومها الطويل أضاع بريقهما .. بدت امرأة ريفية قوية بارعة فى عملها ..

سألها المفتش :

ـ « هل عرفت كم عدد الذين هاجموك ؟ »

ـ « دستة منهم .. جيوش ! كانوا كالنحل فى كل أرجاء البيت .. رأيتهم من أعلى وهم يملئون المكان ، وعلى عتبة هذا الباب وثب أحدهم علىّ من الخلف وكاد يخنقنى وهو يكتم أنفاسى كى لا أصرخ .. كانوا أقبح مجموعة رأيتها فى حياتى .. »

ـ « هل رأيت وجوههم ؟ »

ـ « لا .. كانوا ملثمين ولكم وددت لو ميزت تلك الوجوه .. »

طلب منها الجلوس لتستريح ، ثم سألها :

ـ « غرفتك فى الطابق العلوى من الطراز الذى له نافذة فى السقف .. ألم تسمعى جلبة من فوق السطح .. »

ـ « نعم .. كيف لى أن أسمع ذلك ؟ ما سمعته كان من الطابق السفلى .. »

ـ « وهل قيدوك عند العتبة أم هنا ؟ »

ـ « قبضوا علىَّ عند العتبة ودفعونى هنا .. »

نظر لحجمها الضخم ، وقال :

ـ « أحسب هذا لم يكن عمل رجل واحد .. »

ـ « تأكد من هذا .. احتاج الأمر لأربعة رجال .. »

ـ « وماذا كان الآخرون يفعلون ؟ »

ـ « كانوا منشغلين فى انتزاع اللوحات عن الجدار وإخراجها من النافذة .. »

لمعت عينا (جورشار) ونظر إلى الدوق ..

ـ « هل كان هناك رجل يناول اللوحات لآخر على السلم ؟ »

ـ « لا .. كان ينزل بنفسه الدرجات .. »

ـ « متأكدة ؟ »

ـ « نعم .. لماذا أكذب أيها المفتش ؟ »

غير أن الدوق رأى أولى علامات عدم الراحة على وجهها ..

قال لها المفتش :

ـ « أرجو أن توضحى لى موضع الشبكة التى كانت تسد المدفأة وقتها .. لقد وضعوك خلفها .. أريد أن ترسمى لى موضعها بالطبشور على الأرض ... سمعت أنك تمارسين تفصيل الثياب لهذا لابد أن معك قطعة طبشور .. »

مدت يدها لجيبها ثم توقفت ، وهتفت :

ـ « نعم .. معى .. لكن .. لا .. ماذا دهانى ؟ ليس معى طبشور .. »

بحركة قاسية أمسك بمعصمها وأعتصره حتى صرخت ألمًا ، ثم مد يده فى جيبها وأخرج قطعة من الطبشور الأزرق .. صاحت :

ـ « ما المشكلة فى هذا ؟ .. ألا يمكن للمرأة أن تحمل قطعة طبشور فى جيبها دون أن يضايقها كل رجل شرطة تقابله ؟ »

نادى (بونافينت) وطلب منه أن يحضر عربة السجن وينقل فيها هذه المرأة إلى أن يتولى القاضى أمرها .. صاحت فى دهشة :

ـ « لكنى لم أفعل شيئًا .. ليست جريمة أن أحمل قطعة طبشور ! »

ـ « القاضى سيقرر هذا .. »

نظرت له فى ثبات فى عينيه ، ثم خرجت مع رجل الشرطة ..

* * *

الفصل الرابع عشر
فـرار سونيا

قال المفتش فى سخرية :

ـ « هذه واحدة ممن هم فوق الشكوك بالنسبة لـ (فورمرى) .. »

ـ « ما دور الطبشور هنا ؟ »

ـ « إنه أزرق .. نفس اللون الذى كتب به التوقيع على الجدار .. أضف لهذا تنبهها فجأة إلى غلطتها ، تدرك أن هذا فعلا هو نفس الطبشور .. »

قال الدوق :

ـ « أشعر أنها برغم كل شىء تملك روحًا طيبة .. »

هز المفتش كتفيه ، وقال بالخبرة الساخرة التى اكتسبها :

ـ « السجون تغصُ بذوى الأرواح الطيبـة .. إنهم يقعون فى قبضتنا أكثر بكثير من ذوى الأرواح الشريرة .. »

هنا دخل المفتش الصغير (بونافينت) وأضاف معلومة صغيرة :

ـ « لم يتضح أن هناك من رأى سيارة أثاث أو نقل تقف أمام البيت ، لكن أحد الكناسين رأى رجلاً يلبس معطف ركوب يخرج من هذا البيت فى الخامسة صباحًا .. كان يدخن وألقى بسيجارته

ثم ركب سيارة حمراء وانصرف .. عندما التقط الكناس لفافة التبغ ليدخنها وجد أنها (مرسيدس) .. تبغ مصرى .. »

هتف الدوق فى دهشة :

ـ « مرسيدس ! نفس نوع سجائرى ! »

سأله المفتش :

ـ « أنت طبعا تملك مخزونًا منها فى (شارميراس) .. »

ـ « هناك علب منها فى كل مكان وكل درج .. »

ـ « هذا يؤيد نظريتى أن اللص جاء من (شارميراس) معنا .. »

ـ « هل تتهم آل (شاروليه) إذن ؟ »

ـ « لست متأكدًا من هذا .. على أن هناك مهمة ثقيلة يجب القيام بها هى أن تستدعى الآنسة (سونيا) من غرفتها .. قل لها أن تجلب قبعتها ومعطفها .. »

ثم أشار إلى (بونافينت) ، وقال :

ـ « اعمل على أن تنقل إلى السجن فى نفس العربة التى ستنقل (فكتوار) .. »

صاح الدوق غير مصدق :

ـ « أنت لن تعتقل هذه الطفلة . هذا مشين ! »

ـ « للأسف هذا ما يجب عمله .. لقد استجوبناها كما قلت لك وكانت قصتها مليئة بالتناقض .. لو لم أعتقلها فأنا أقصر فى عملى .. »

ثم أخرج ورقة من جيبه ، نظر لها الدوق بعض الوقت ثم شحب وجهه ..

قال فى هدوء :

ـ « سوف أستدعيها من غرفتها .. »

صعد الدرج إلى غرفة (سونيا) ودق الباب .. فتحت له الفتاة ممتقعة الوجه فقال لها دون أن ينظر فى عينيها :

ـ « (جورشار) حصل على أمر باعتقالك ! »

صاحت (سونيا) فى صوت خائف :

ـ « إذن انتهى أمرى ! »

ـ « كلا لم ينته . يجب أن تفرى الآن .. »

ثم إنه أخرج بطاقة أخرى تحمل اسم (جورشار) واتجه إلى منضدة وجلس ، وأخرج بطاقة السماح التى أعطاه إياها (جورشار) وبدقة مذهلة كتب على البطاقة بنفس خط المفتش :

« اسمحوا للآنسة (كريتشنوف) بالمرور

ج. جورشار .. »

كانت (سونيا) تقف جواره تلهث من التوتر والخوف ، فقال لها :

ـ « يجب أن تغادرى البيت حالاً .. فقط اعرضى البطاقة على المخبر على الباب .. »

ـ « لكن هذا جنون .. عندما يعرف (جورشار) ما فعلته وموضوع هذه البطاقة فسوف .. »

ـ « لا وقت لهذا .. إلى أين ستذهبين ؟ »

ـ « فندق صغير قرب (ستار) .. لا أذكر الاسم لكن رقم الهاتف هو 555 .. »

دون الرقم ثم طلب منها أن تأتى لمنزله لو لم يتصل بها حتى السابعة والنصف من صباح غد .. قالت فى نعومة :

ـ « كم أنك طيب معى ! »

فتح لها الباب ، وقال بصوت عال :

ـ « هل أنت متأكدة من أنك لن تحتاجى إلى سيارة أجرة يا آنسة ؟ »

قالت :

ـ « لا .. شكراً لاهتمام معاليك .. »

وغادرت البيت من الباب الرئيس ..

* * *

الفصل الخامس عشر

الدوق يبقى

ظل الدوق يصغى حتى تلاشى صوت خطواتها ، ثم اتجه إلى مقعد مريح جلس عليه ، أشعل سيجارًا .. غير مبال على الإطلاق بعودة المفتش ..

عاد المفتش ليطلب من (بونافنت) أن يجلب الآنسة ، ولم ترق له البسمة الساخرة على شفتى الدوق .. قال (بونافنت) :

ـ « الآنسة قد رحلت يا سيدى .. »

ـ « ماذا ؟ ماذا تعنيه ؟ »

ـ « رحلت يا سيدى .. »

ـ « ومن تركها ترحل ؟ »

ـ « الرجال على الباب .. »

نادى (جورشار) الرجال فجاء له رجلا شرطة جريًا .. وأمام غضبة المفتش قالا :

ـ « لكن كان معها تصريح الخروج بخطك .. »

ـ « بخطى ؟ بحق السماء هذا تزوير ! »

ثم أطرق مفكرًا بعض الوقت بحثًا عن ضوء .. نظر إلى الدوق الذى جلس يدخن هادئ البال ، كأنما هو يراه للمرة الأولى .. ثم قال :

ـ « تلك الطفلة المسكينة كما تسميها ، قد فرت مستعملة تصريح خروج مزيفًا .. »

قال الدوق :

ـ « بحق السماء .. هذا يسرنى .. وآسف لأننى لا أتعاطف معك .. »

قال المفتش :

ـ « السؤال المهم هو كيف ظفرت بهذا التصريح ؟ »

نظر له الدوق فى ثبات كالبومة ، فبادله النظرات غير المستريحة .. شعر (جورشار) بأن هناك غصة فى حلقه فابتلع بصوت مسموع ثم سأل (بونافنت) :

ـ « على الأقل أرسلت (فكتوار) للسجن ؟ »

ـ « نعم يا سيدى .. فى السيارة الأولى .. »

ـ « أية سيارة أولى؟ .. »

ـ « السيارة التى أخذتها للسجن .. »

ـ « هل تعنى أن هناك سيارتى سجن ؟ »

ـ « نعم يا سيدى .. »

ـ « يا للجحيم ! وهل عرفت من هو سائق السيارة الأولى التى ركبتها (فكتوار) ؟ »

ـ « لا يا سيدى . أعتقد أنهم مستجدون .. »

ـ « يا لك من أحمق ! العناية بالدجاج .. هذا ما تصلح له ! لقد أرسلتم (فكتوار) للسجن فى سيارة سجن مزيفة .. سيارة تخص (لوبين) ! الوغد ! لابد من ورقة يخفيها فى كمه ! لكن كيف عرف ؟ كيف عرف أنها ستفيق فى العاشرة وأنها ستتعثر فى الكلام وأننى سأرسلها للسجن ؟ لم يغادر أحد البيت .. هناك تسرب للمعلومات .. لا أعرف من أين .. لكن هو ذا الوغد جاهز بسيارة مزيفة فى اللحظة التى أمرت فيها باعتقال (فكتوار) ! مشكلتى هى أننى أعمل مع بلهاء .. لو كان هؤلاء الرجال يملكون ذكاء الرجل العادى لسقط (لوبين) فى قبضتى منذ زمن .. هناك شعار واحد للمفتش الكفء .. وهذا الشعار يتلخص فى كلمة واحدة : شك ! شك فى كل شىء وكل شخص .. »

أمر رجاله بأن يعيدوا تفتيش غرفة نوم (فكتوار) .. .

بعد قليل جاء أحد الرجال حاملاً كتابًا ، وقال وهو يناوله للمفتش :

ـ « ثمة كتاب صلاة فى غرفتها .. هناك صورة موضوعة فيه .. »

مد المفتش يده وفحص الصورة ، ثم هتف :

ـ « يا للعجب ! »

كانت الصورة ذات عمر لا يقل عن عشر سنوات ، وتظهر (فكتوار) فى ثياب الأحد الأنيقة .. جوارها فتى فى السابعة عشرة أو الثامنة عشرة .. ثبتت عينا (جورشار) على وجه الفتى وقرب الصورة من وجهه .. ثم رفع عينيه وراح يتأمل الدوق ..

لاحظ الدوق هذه النظرات فشعر بعصبية ، من ثم دنا منه (جورشار) أكثر .. قال الدوق فى ضيق :

ـ « ماذا هنالك ؟ هل ربطة عنقى مربوطة بشكل غير صحيح ؟ »

ـ « لا شىء .. لا شىء .. »

وعاد يتفحص الصورة مقطبًا ..

★ ★ ★

قالت (جرمين) للدوق :

ـ « أبى ينوى أن يقضى ليلته فى فندق (ريتز) .. ينوى أن يأخذنى معه لأنه يمقت فكرة أن أمضى الليل هنا .. يتوقع أن يهجم (لوبين) بكل رجاله .. لا أصدق أن يفعل هذا مع كل رجال الشرطة هنا .. »

هكذا تأهبت للرحيل وارتدت عباءتها وكذا فعل أبوها .. وقابل أبوها المفتش والدوق فقال إنـه لا يضمـن شيئًا وليست لديـه أيـة نيـة للمبيت هنا ، لكن (لوبين) لو جاء لن يجد التاج لأنه أخذه معه .

وأشار إلى الحقيبة التى يحملها ..

قال الدوق :

ـ « هل أنت واثق من أن هذا مـأمون ؟ تـأخذه مـن وسط كل الخزائن ورجال الشرطة هنـا .. هذا يضعه تحت خطر كبير .. (لوبين) طلب أن تبقـى لـه التـاج فـى غرفـة نومـك ولـم يقل أيـة غرفة نوم ؟ »

قال المفتش :

ـ « معاليه محق .. من سياسات (لوبين) المعروفة أن يدفعك للفرار من البيت .. وأن تنزع التاج من كل الحماية المحيطـة بـه إلى حيث تكون فى وضع سهل .. »

هنا طلب المليونير الانفراد بالدوق ..

أخذه إلى غرفة داخلية وسأله عما إذا كان يثق بـ (جورشـار) .. فهو قد بدأ يشك فـى كل إنسان من حولـه .. قـال الدوق إنـه لا يرى داعيًا للشك فـى المفتـش الـذى أظهـر براعـة واضحـة حتى اللحظة ..

ما كاد الرجلان ينفردان ويغلقان الباب خلفهما حتى وثب (جورشار) إلى (جرمين) وأخرج تلك الصورة وعرضها عليها قائلاً:

ـ « هل تعرفين أحدًا فى تلك الصورة ؟ »

نظرت للصورة فى ملل ، وقالت :

ـ « إنها قديمة جدًا .. يصعب تبين شىء .. لا أعتقد أننى أعرف المرأة .. »

ـ « لكن ماذا عن الفتى ؟ ألا تجدين فيه شبهًا من الدوق ؟ »

تأملت الصورة ، ثم قالت :

ـ « بلى . يبدو كالدوق .. على الأقل الآن .. لكنه لا يبدو مثله كما كان منذ عشر سنوات .. لقد تغير الدوق كثيرًا .. هناك تلك الرحلة المرعبة للقطب الجنوبى ، وهناك مرضه الذى يئس الأطباء من شفائه .. كان هذا فى (مونتفيديو) .. برغم هذا شفى وهو بخير كما ترى .. »

هنا عاد المليونير والدوق إلى الغرفة .. فوضع المليونير حقيبته على المنضدة وفتحها وأخرج التاج .. التف الجميع حوله ينظرون له ..

تنهد المليونير ، وقال :

ـ « أليس رائعًا ؟ »

ثم قال لـ (جورشار) :

ـ « لقد قررت أن أعهد لك بالتاج شخصيًا يا مسيو (جورشار) .. أعتقد أنك لن تعترض على هذا ؟ »

ـ « بتاتًا يا سيدى .. هذا بالضبط ما كنت أتمنى أن أطلبه .. »

ـ « إذن عمت مساء يا مسيو (جورشار) .. »

قال الدوق :

ـ « لقد بدأت أعتقد أننى سآتى معكما .. أنا بحاجة إلى النوم .. عمت مساء يا مسيو (جورشار) .. »

صاح (جورشار) :

ـ « أنت لن ترحل أيضًا يا سيدى الدوق .. هل أنت خائف ؟ »

قال العبارة الأخيرة فى تحد ساخر واضح .. من ثم فرد الدوق كتفيه ونفش صدره ، وقال :

ـ « أنت قد وجدت الطريقة المثلى لجعلى أبقى هنا ! »

هنا صاحت (جرمين) بطريقتها الصريحة :

ـ « أنت لن تقضى الليل هنا ! لاحظ أنك لم تنم ليلة أمس وظللت تقود السيارة على طرق وعرة .. من الثامنة مساء حتى السادسة صباحًا .. معنى هذا أنك لن تكون فى حالة تسمح لك بحضور حفل الأميرة غدًا .. باريس كلها ستكون فى هذا الحفل .. »

ـ « سأكون بخير .. سوف ينتهى كل شىء فى منتصف الليل بعدها أنام كما أريد .. »

وفى الخارج كان رجال الشرطة قد استوقفوا سيارة أجرة، ففتح الدوق الباب لـ (جيرمين) وانحنى ليلثم يدها .. ثم حيا حماه الذى قال بطريقة مثيرة للشفقة :

ـ « أشعر أننى لن أبيت فى بيتى مرة أخرى .. »

ورحلت السيارة .. هنا عاد إلى الداخل وسأل المفتش :

ـ « هل ترى أن ننتظر (لوبين) فى غرفة نوم مسيو (مارتن) أم فى قاعة المعيشة ؟ »

ـ « المعيشة .. لا أعتقد أن (لوبين) سيتوقع أن يظل التاج حيث هو .. »

هكذا جلس الدوق فى القاعة المذكورة، وأشعل لفافة تبغ وتثاءب .. أخرج ساعته ونظر لها، ثم قال :

ـ « عشرون دقيقة .. »

* * *

الفصل السادس عشر

الدوق يرحل

لحق (جورشار) بالدوق فى الغرفة، فلاحظ أن أعصابه متوترة .. قال له :

ـ « عملية تثير الأعصاب .. أليس كذلك ؟ »

ـ « بلى هى كذلك .. »

ـ « عرفت أنك غادرت (شارميرانس) فى الثامنة مساء لتصل فى السادسة صباحًا .. لابد أن سيارتك لم تكن قوية جدًا .. أو أنك تعرضت لعطل فظيع .. »

ـ « فعلاً .. هذا العطل كلفنى ثلاث ساعات .. لا أجيد الميكانيكا جدًا، لكنى أعرف عن المحركات ما يعرفه بعض من أمهر الحرفيين .. »

ـ « إذن لم يساعدك أحد .. »

ـ « لا .. مسيو (مارتين) لم يرد أن يترك لى السائق، وكان الطريق خاليًا لأنها كانت الثانية صباحًا .. هل لك فى لفافة تبغ ؟ »

نهض المفتش ليأخذ لفافة من علبة الدوق وتفحصها جيدًا، ثم قال :

ـ « كل هذا غريب .. لفافة التبغ المرسيدس .. الرجل الذى يلبس معطف قيادة . الصورة فى غرفة (فكتوار) .. »

الآن كان الاتهام فى صوته واضحًا لا يحتاج إلى مترجم ..

نهض الدوق من مقعده ، وصاح فى غضب وكبرياء :

ـ « أيها المفتش ! أنت ثمل ! »

وحمل معطفه وقبعته واتجه للباب فاستوقفه المفتش .. كان الآن شاحب الوجه يتصبب عرقًا .. وقال له وهو يرتجف :

ـ « أنت لا تفهم .. معاليك .. أرغب فى أن تكون معى .. يجب ألا ترحل .. إننى أعتذر بشدة فلست على ما يرام .. »

قال الدوق فى برود :

ـ « هذا واضح .. »

وعاد الدوق إلى الجلوس ، بينما قال المفتش بنفس الطريقة المضطربة الغريبة :

ـ « معاليك .. تعال نتأكد من أن التاج بخير .. »

وأخرج التاج وراح يتفحصه مبديًا إعجابه بجماله .. بينما الدوق ينظر له فى دهشة .. ثم سأل المفتش الرجل :

ـ « ألا يثير الانتظار مللك ؟ »

ـ « بتاتًا .. من الممتع أن أقضى ليلتى مع ذلك الوغد الذى حيركم طيلة عشر سنوات .. »

جاء (بونافنت) ليبلغ المفتش أن هناك رجلى شرطة على الباب الأمامى ورجلين على الباب الخلفى ، مع رجل فى كل غرفة من غرف الطابق السفلى .. وهناك ثلاثة رجال فى كل طابق .. أما المنزل المجاور فهناك دستة رجال ..

نظر المفتش لوجه الدوق ، فلم ير أية علامة على تغير التعبير الهادئ عليه ..

ـ « لو حاول أى واحد دخول البيت فاعتقلوه .. لو اقتضى الأمر أطلقوا الرصاص عليه .. تلك أوامرى .. أبلغها للجميع .. »

غادر الرجل الغرفة ، فقال الدوق :

ـ « بالله عليك .. هذه قلعة ! »

ـ « بل هى قلعة أكثر مما يتصور معاليك .. لا يمكن أن يدخل (لوبين) هنا ما لم يسقط من السقف أو يكون أحدنا .. »

وضحك الرجلان كثيرًا ..

نهض الدوق وتثاءب وتناول معطفه وقبعته ، فقال المفتش :

ـ « إلى أين ؟ »

ـ « سأذهب لأنام .. هل ما زلت تتوقع أن ترى (لوبين) ؟ »

ـ « سنراه معاليك .. سنراه .. »

ثم خفض صوته قائلاً : « إنه هنا بالفعل يا سيدى .. »

ـ « هنا ؟ هل هو واحد من رجالك ؟ »

ـ « لا أعرف .. لا أعتقد ذلك لكنى متأكد من أنه موجود .. إنها قلعة وهو يحتاج إلى شجاعة الشيطان كى يقتحمها .. لكنه يجب أن يجازف بكل شىء كى ينال كل شىء .. »

كان فى صوت المفتش تحد واضح .. لكنه تحد لا يجرؤ على الإعلان عن نفسه .. فقط كانت عيناه تحرقان وجه الدوق ..

هكذا ظل الرجلان يتبادلان نظرات التحدى للحظات .. فجأة بدا الرجلان كأنهما مبارزان فقدا التحكم فى أعصابهما ..

قال المفتش :

ـ « مهما كان مستوى اللص فهو فى النهاية محدود الذكاء .. وأنا أرى أن هذا اللوبين يلقى ما هو أكثر من قيمته الحقيقة .. »

قال الدوق وقد استعاد ابتسامته ، بطريقة المبارز الذى يتحسس نصل سيفه قبل أن يغمده :

ـ « برغم هذا قام بأعمال ليست سيئة جدًا .. مثلاً سرقة ليلة أمس .. وسرقة وزارة المالية .. سرقة المتحف البريطانى .. هذا الرجل ليس سيئًا على الإطلاق .. »

قال (جورشار) :

ـ « لكن هناك مرة أفضل .. لا تنس أن تذكر المرة التى ادعى فيها أنه دوق (شارميراس) ! »

ـ « هل فعل ذلك ؟ .. »

ـ « وأكثر .. بل أوشك على الزواج من ابنة مليونير ! »

ابتسم الدوق ابتسامة خفيفة ، وقال :

ـ « هذا هو ما يطلقون عليه (زواج المنفعة) .. »

ـ « أن يقضى الليل مقيدًا بالأصفاد فى قسم الشرطة ، بدلاً من أن يحضر حفل الأمير .. أليس هذا مهينًا ؟ أليس انتقامًا كافيًا لـ (جورشار) المسكين الأحمق ؟ بالنسبة للوبين هذه مجرد مضايقة .. بالنسبة للدوق هى كارثة .. ألا ترى هذا مسليًا ؟ »

هنا نهض الدوق ، وقال :

ـ « هل انتهيت ؟ »

ـ « هل انتهيت أنت ؟ »

ـ « أنا أجد كل هذا مسليًا .. أنا دوق (شارميراس) ولا أضع أى قناع .. »

ـ « بل أنت (لوبين) .. »

ـ « برهن عن هذه النظرية .. »

ـ « سوف أفعل .. »

ـ « هلم .. اجعل من نفسك جحشًا ولتكن مضحكة باريس كلها .. الرجل الذى اعتقل دوق (شارميراس) على أنه (لوبين) .. ناد رجالك وضع الأصفاد فى يدى .. ليس لديك دليل واحد ضدى .. ولا دليل .. لقد كان (فورمرى) على حق عندما قال إن ذكر اسم (لوبين) يطير صوابك .. الآن تقترب عقارب الساعة من منتصف الليل .. وأعصابك تتوتر أكثر فأكثر .. »

فجأة صرخ : « انتباه ! »

فأجفل المفتش .. ضحك الدوق ، وقال :

ـ « إن أعصابك فى غاية التوتر .. ترى من يملك الشجاعة لمواجهة ما سيحدث ؟ .. ما لابد أن يحدث ؟ »

كان صوته الآن مرعبًا .. شخصيته صارت آمرة مسيطرة ومخيفة .. لم يعد يمت بصلة لهذا المازح المتبختر القديم ..

ـ « تذكر أنه كلما ازدادت ترتيباتك ازدادت فداحة الهزيمة عندما ينهار كل هذا البناء .. عندها فقط ينتصر .. تذكر أنه قهرك فى كل مرة كنت فيها قريبًا من النصر .. لم لا تعتقلنى ما دمت تعرف يقينًا أننى لوبين .. »

أخرج المفتش الأصفاد من جيبه ، وقال :

ـ « لا أدرى ما يمنعنى من هذا .. »

ـ « بقيت ثلاث دقائق .. سوف يختفى التاج ولن تقبض على لوبين .. أنت تعرف هذا لذا أنت خائف .. »

ثم مد يده فى جيبه وأخرج مسدسًا .. هتف المفتش :

ـ « آه . لا .. »

وأخرج من جيبه مسدسًا آخر .. كان يرتجف وعيناه بلون الدم ، وقد غمر العرق جبهته ..

قال الدوق وهو يعيد المسدس لجيبه :

ـ « لا أعرف ما السبب .. أنت تركت لى الحرية فى استعمال السلاح إذا ظهر (لوبين) .. إنه سيظهر بعد دقيقة .. »

ـ « أية حركة سوف أفرغ فيك هذا المسدس .. »

ـ « افعل .. أنا أدعى دوق (شارميراس) .. ومعنى هذا أنك ستسجن غدًا .. بقى من الزمن خمسون ثانية .. »

وقف الرجلان متصلبين يتبادلان النظرات .. والساعة تبدو كأنها لا تتحرك ..

عندما دقت دقتها الأولى تصلب الرجلان .. تصلبا حتى انتهت الدقات ..

قال المفتش :

ـ « انتهى الأمر .. التاج ما زال هنا .. يمكن القول إننى ربحت ؟ »

قال الدوق بضحكة لطيفة :

ـ « ربما نعم .. ربما لا .. ألا تلاحظ أن التاج صار خفيف الوزن ؟ ألم تفكر فى أن التاج فى الحقيبة مجرد تقليد للتاج الأصلى ؟ »

هنا صرخ (جورشار) :

ـ « (بونافنت) .. تعال هنا ! »

وارتمى على المقعد خائر القوى على حين اندفع رجال الشرطة إلى الغرفة .. قال الدوق :

ـ « لقد سرق التاج يا سادة ! »

وغادر الغرفة ، على حين تعالت صيحات الدهشة والعجب .. كان المفتش قد انهار تمامًا بعد هذا التوتر من ثم غطى وجهه وراح ينشج .. عندما أفاق سأل الرجال عن الدوق .. قالوا له إنه رحل ..

وثب على قدميه ، وصرخ :

ـ « لا تتركوه يغادر هذا المنزل ! اقبضوا عليه حالاً .. »

* * *

الفصل السابع عشر

لوبين يعود

فى قصر الدوق (شارميراس) الفاخر فى باريس ، وقف مسيو (شاروليه) ينظر عبر ستائر النافذة إلى الشارع .. لشد ما تبدل عن التاجر الثرى الذى زار المليونير مع أبنائه .. كان أكثر شحوبًا وأقل توردًا ولم يكن له شارب .. وكانت ثيابه أقرب إلى ثياب الخدم ..

خلفه كانت (فكتوار) تقف متوترة .. وعلى باب الغرفة كان ابنه (برنار) .. كانت (فكتوار) تفرك يديها فى قلق وهى تنظر للساعة :

ـ « السابعة .. أين عساه يكون ؟ »

قال (برنار) :

ـ « خير ما نفعله هو أن نذهب .. »

ـ « لا .. سوف يعود .. أنا واثقة من ذلك .. ترى هل ما زال الرجلان اللذان يلبسان ثيابًا مدنية واقفين ؟ .. »

قال (شاروليه) :

ـ « نعم .. ومن الخير ألا تقتربى من النافذة .. »

هنا دق جرس الباب الأمامي .. تصلبوا كأنما تحولوا لحجارة .. فتح باب المصعد الجانبي وخرج منه الدوق ، لكن شد ما تغير عن الرجل الأنيق الذي خرج من بيت المليونير .. كان شاحبًا مرهقًا موشكًا على الإغماء ، والوحل يغمره من قدميه لأعلى رأسه .. وكان أحد كميه منزوعًا وقد سلخ أحد كفيه .. لكنه راح يرقص في القاعة طربًا ..

صاحت (فكتوار) :

ـ « إنه السيد ! هل أنت مصاب ؟ »

قال (أرسين لوبين) :

ـ « لا .. »

هنا دق الجرس من جديد .. فتصلب الجميع ، لكن (لوبين) قال للخادم :

ـ « هلم افتح الباب يا (شارولیه) .. لكن ليس بسرعة .. (برنار) .. أغلق خزانة الكتب .. (فكتوار) .. اختبئي حالاً .. هل تريدين لنا الخراب ؟ »

ثم هرع إلى غرفة نومه ، على حين ضغط (برنار) على زر ، فتحركت المكتبة ببطء لتغطي فتحة المصعد ..

على الباب راح (شارولِيه) يعبث فى الأقفال المفتوحة بالفعل ، بينما صبر الواقفين على الجهة الأخرى قد نفد .. راح يطلب منهم الانتظار ما داموا جاءوا فى وقت مبكر كهذا ..

هنا انفتح الباب بعنف ، واقتحمه (بونافنت) وشرطى آخر .. اندفعا للداخل ، على حين وقف شرطى متجهم الوجه يحرس الباب ..

جرى (شارولِيه) خلف الشرطيين ، وهو يصيح :

ـ « إلى أين العزم ؟ ما كل هذا ؟ إن معاليه لم يصح من النوم بعد .. »

ـ « لم يصح ؟ .. سيدك يركض فارًا منا طيلة الليل ! »

انفتح باب غرفة النوم وعلى بابه وقف (لوبين) بالمنامة والخفين .. وقد بدا وجهه المرهق وشعره المنكوش مناسبين لرجل استيقظ لتوه من النوم ..

ـ « ماذا يجرى هنا ؟ »

نظر له الشرطيان فى ذهول وحيرة ، ثم قال أحدهما :

ـ « معذرة لمعاليك .. لابد أن هناك غلطة ما .. »

ـ « أنا متأكد من أنها غلطة .. لقد عرفتكما .. أنتما تعملان مع (جورشار) .. (جورشار) هو من سيدفع الثمن .. يمكنكما الانصراف .. »

هكذا اقتادهما (شارولية) للباب وقد بدت عليهم سيماء الكلب الذى ضرب بالسوط .. وسرعان ما كانا فى الشارع ..

فما أن وجد (لوبين) نفسه وحده حتى سقط منهكًا على الأريكة .. ركضت (فكتوار) نحوه وراحت تفرك يديه .. ثم صاحت مذعورة فى (شارولية) :

ـ « هات له بعض الإفطار .. إنه موشك على فقدان وعيه من الإرهاق والجوع .. »

قال لها وعيناه مغمضتان :

ـ « كدت أموت ذعرًا مرتين .. مرة عندما بدلت التاج تحت عينى المليونير البدين عندما زرته فى غرفة نومه مساء أمس الأول .. وعندما رأيتك تعتقلين أنت و(سونيا) .. برغم هذا بقيت حتى النهاية متحديًا (جورشار) .. لكننى فى النهاية فقدت أعصابى وبدلاً من أن أحتفظ بهدوئى كدوق جريت كاللصوص .. عشرة منهم كانوا فى أثرى .. وكنت منهكًا من الليلة التى قدت فيها السيارة ؛ لذا كنت منتهيًا قبل أن أبدأ .. لدرجة أننى فكرت فى أن أثب فى نهر (السين) لأنهى هذا كله .. ثم قررت أن أمنح نفسى دقيقة .. دقيقتين .. وفى النهاية بدا أننى قادر على أن أسبقهم ..

« وجدت نفسى خارج باريس .. لا أعرف أين .. كنت أشتهى النوم .. كنت مستعدًا لدفع مائة ألف فرانك من أجل ساعة نوم .. بعد حوالى ساعة عدت إلى باريس ومشيت ومشيت حتى وصلت إلى بيتى لأركب المصعد .. آه يا عزيزتى (فكتوار) ! يا لها من مهنة شاقة ! »

* * *

الفصل الثامن عشر

قطع خطوط الهاتف

قالت له (فيكتوار):

ـ « ما زلت لا أفهم لماذا أقوم بهذه الأعمال التى أقوم بها .. إن اللصوصية مهنة لن تقودك لأى شىء .. لا أعرف لماذا أطيعك .. ربما لأننى أحبك .. »

قال لها وهو يلتهم الإفطار بشهية غير عادية :

ـ « وأنا كذلك أحبك يا عزيزتى فكتوار .. رباه ! كنت أموت جوعًا .. لا شىء مثل هذه الطريقة فى إعداد البيض ! صبى المزيد من القهوة .. »

ـ « أتساءل عما ستقوله أمك المسكينة لو عرفت ما صرت إليه .. »

ـ « لا أظنها ستندهش .. كنت أقول لها دومًا إننى أريد معاقبة المجتمع على الطريقة التى عاملها بها .. »

ـ « حتى وأنت طفل كانت تثير دهشتنا .. لابد أنك ارتكبت أولى سرقاتك فى سن السابعة .. »

ـ « لم أسرق إلا السكر .. »

ـ « بدأتَ بالسكر ثم المربى .. الآن أنت فى الثامنة والعشرين ولم تتوقف لحظة .. صحيح أنك تسرق من الأثرياء القساة وتعطى الفقراء .. لكن .. »

ـ « لقد درست الطب والقانون .. مثلت ودرست (الجيجوتسو) .. عملت مع الشرطة .. ثم صرت دوقًا مزيفًا .. لكنى لم أستمتع قط إلا عندما مارست السطو .. لم أجد التنوع والإثارة إلا فيها .. على المرء إذا لم يصر جنديًا عظيمًا أو فنانًا عظيمًا أن يصير لصًا عظيمًا ! »

ثم أعلن أنه يجب أن يتصل بـ (سونيا) تمهيدًا للقائها فى الفندق .. كما اتفقا أمس ..

صاح (شاروليه) الذى كان قد دخل ليرفع الأطباق :

ـ « لا تذهب .. هذا شرك واضح .. »

قال (لوبين) :

ـ « وما فى ذلك ؟ لن تكون هناك سوى الشراك من الآن فصاعدًا . أرغب فى أن أذهب لأتفحص هذا الشرك بنفسى .. لكن ثق أنهم لو كانوا يملكون الدليل القوى علىّ لكانوا جميعًا هنا الآن .. ما زالوا غير متأكدين لهذا لم يصمد الشرطيان للومى صباح اليوم .. كانا يطاردان رجلاً ليسا متأكدين مما إذا كان الدوق أم لا .. طرقا بابى فإذا بى أقابلهما غاضبًا فى ثياب النوم .. »

ثم أشار إلى الجدار ، وقال :

ـ « فى خزانة داخل هذا الجدار تجد التاج .. والأهم أنك تجد شهادة موت دوق (شارميراس) الأصلى .. »

ثم جاء بحقيبة ومفتاح ، وفتح الخزانة السرية وأخرج التاج منها وكذا مجموعة من الأوراق دسها فى حافظة صغيرة ..

ـ « أنا مسرور لأن شهادة الوفاة معى .. لو وقعت فى يد (جورشار) الأبله فلا أريد أن يتهمنى بقتل الدوق (شارميراس) .. أنا لم أقتل مخلوقًا فى حياتى .. »

قالت (فكتوار) :

ـ « الحقيقة أنك كنت تحبه .. أى شخص يراكما كان سيعتقد أنكما أخوان بسبب تشابه الملامح .. كان هذا عندما سطوت على المليونير أول مرة منذ ثلاث سنوات ، ولمحت الصورة المعلقة والتشابه الشديد فى الملامح .. قلت لى لابد من أن نستخدم هذا الشبه فى عملية ما .. »

ـ « بحثت عن الدوق حتى وجدته موشكًا على الموت .. عنيت به .. لكننى كرهت أن يموت معه اسم أسرته العظيم .. ولم أتردد .. صرت أنا الدوق .. »

ثم نهض ليبدل ثيابه وأمر (شاروليه) بأن يأتى ليحلق ذقنه ..

لما توارى قال (شاروليه) لـ (فكتوار) :

- « أعتقد أن خير ما نفعله هو أن نحزم حاجياتنا ونستعد للرحيل ، فقد دنت هذه اللعبة من نهايتها .. »

- « أتمنى ذلك .. أنا أرغب بشدة فى العودة إلى الريف .. »

وذهب (شاروليه) ليحلق ذقن (لوبين) ..

فجأة دوت دقة على الباب فهرع ينزل فى الدرج ليفتحه .. هنا وجد نفسه أمام (بونافنت) نفسه .. المفتش (بونافنت) فى ثياب ساع يعمل فى فندق (ريتز) الذى قضى فيه المليونير وابنته ليلتهما .. كان تنكره مضحكا وشاربه مفضوحًا .. وتظاهر (شاروليه) بصعوبة بأنه لم يتعرفه ..

قال له (شاروليه) بلهجة رئيس خدم :

- « ماذا تريد ؟ »

- « أحمل رسالة شخصية للدوق (شارميرانس) .. لكنى لن أسلمها إلا له .. هكذا تقضى التعليمات .. »

أدخله (شاروليه) لغرفة التدخين ، وقف يفكر فيما إذا كان من الأفضل البقاء معه أم تركه .. هنا دوت ضربة عنيفة على الباب الخارجى .. هكذا اضطر لتركه حيث هو .. ما إن خرج حتى وثب (بونافنت) بسرعة وأخرج (قصافة) وسرعان ما كان قد وجد سلك الهاتف وقطعه ..

ثم وقعت عيناه على حافظة الأوراق ، فدسها فى جيبه الداخلى بسرعة البرق ، فى اللحظة التى انفتح فيها الباب وظهر (لوبين) ..

ـ « ماذا تريد ؟ »

قال إن معه رسالة لدوق (شارميرانس) ، فقال (لوبين) إنه هو .. وأخذ الرسالة ثم أمره أن ينتظر فلعله سيعود بإجابة .. فى ذات اللحظة عاد (شاروليه) مغضبًا لأنه لم يجد أحدًا على الباب ..

فتح الدوق الرسالة وقرأها ثم انفجر فى الضحك :

سيدى :

لقد أخبرنى مسيو (جورشار) بكل شىء عنك ، وكنت قد حكمت عليك من علاقتك بـ (سونيا) .. الرجل الذى يميل للصة لابد أن يكون نصابًا .. لدى خبران أخبرك بهما:

أولاً : موت دوق (شارميرانس) منذ ثلاثة أعوام ..

ثانيًا : نيتى للارتباط بوريثه الوحيد المسيو (دى رزلييه) الذى سينال اللقب .

مدموازيل (جورناى مارتن)

كتبت الخطاب وصيفتها إيرما

طالع (لوبين) الخطاب وقال ضاحكًا :

- « إن أسلوبها ركيك في الكتابة ! تعال يا (شاروليه) واكتب ما أمليه عليك .. »

- « أنا ؟ »

- « نعم .. يبدو أن هذه هي العادة في أوساط الأثرياء .. هلم اكتب التالى .. »

جلس (شاروليه) على منضدة الكتابة وتنهد في عمق .. ثم راح يكتب ما يمليه عليه (لوبين) :

> آنستى :
>
> إن بنيتى قوية لهذا سأستعيد قوتى سريعًا ، ولسوف يكون بإمكانى أن أرسل هدية الزفاف لمدام (دى رزلبيه) القادمة .
>
> دوق (شارميرانس)
>
> كتب الخطاب خادمه (أرسين لوبين)

سمع (بونافنت) الكلام فراح ينظر إلى (شاروليه) فى دهشة وتهيب ..

فرغ (شاروليه) من الكتابة فدس الخطاب فى مظروف وناوله للخادم .. نهض بونافنت متهيئًا للرحيل ..

فى اللحظة التالية وثب لوبين ليضع يده القوية تحت حنجرته ويضغط ، ويقول له :

ـ « لو تحركت لانتزعت عنقك .. (شارولیه) .. تعال وخذ حافظة أوراقى من ثياب هذا اللص .. »

مد (شارولیه) يده وأخرج الحافظة من ثياب الساعى .. هنا قال (لوبين) :

ـ « هذا هو ما يطلقون عليه (جيجوتسو) أيها الشاب .. علمه لتلاميذك ! »

ثم قذف به فى ركن الحجرة وتناول الحافظة ليتأكد من أن أوراقها سليمة ..

ـ « قل لسيدك (جورشار) إنه لو أراد إطلاق الرصاص فليفعل هذا بنفسه .. »

استدار (بونافنت) ، وقد كسا الغضب المجنون وجهه ، وقال :

ـ « سوف يكون هنا خلال عشر دقائق ! »

ـ « شكرًا على المعلومات .. »

* * *

الفصل التاسع عشر

الصـفقة

دعا (لوبين) رجاله و(فكتوار) بسرعة إلى القاعة، وقال لهم :

ـ « سوف يأتى (جورشار) حـالاً ومعـه أمر القبض علىّ .. لابد أن ترحلوا الآن عن طريق المصعد ثـم المخرج الرسمى لأن المنزل مطوق برجال الشرطة .. »

هرع الرجال يزيحون المكتبة وينزلون فى المصعد، فيما قـالت له (فكتوار) :

ـ « لم لا تأتى معنا ؟ »

ـ « ثمة أمور لابد من القيام بها .. لو لم أتصـل بـ (سـونيا) فى فندقها فلسوف تأتى هنا .. أى إنهـا ستضع نفسـها بين فكـى (جورشار) .. لابد من الاتصال بها .. أنا لا أعرف الفندق .. »

ثم رفع سماعة الهاتف إلى أذنه وراح يضغط الزر مرارًا :

ـ « ترى أى جنون حل بى أمس فاقترحت هذه الخطـة الحمقـاء ؟ لا أسمع صوتًا .. ماذا أصاب هذه الآلة الغبية ؟ لابد أن أجدها .. لابد .. »

ثم رفع الآلة ونظر ليجد أن الأسلاك مقطوعة :

ـ « ها ! لقد لعبوا لعبة سلك الهاتف معى .. (جورشار) ! الخنزير ! »

توسلت له (فكتوار) :

ـ « إذن لم يعد بوسعك شىء .. عليك أن ترحل معى الآن .. »

ـ « هذا بالذات آخر ما يمكن أن أعمله .. ألا تفهمين أن عدم اتصالى هو أمر لها بالمجيء إلى هنا ؟ »

ـ « وماذا عنك أنت ؟ »

ـ « وماذا عنها هى ؟ .. أفضل أن يقبضوا علينا معًا على أن يقبضوا عليها وأفر أنا .. »

هكذا اتجهت فى ثبات إلى المصعد وضغطت الزر فعادت خزانة الكتب إلى موضعها .. وتوارى المصعد .. قال لها فى ذهول :

ـ « ماذا ؟ أنت لن تبقى هنا ! »

ـ « حاول أن تمنعنى لو استطعت .. أنا مولعة بك بمقدار ما أنت مولع بها .. »

راح يهزها فى عنف .. ضربها كالبلطجية .. لكنها ظلت ثابتة تأبى التحرك .. هكذا يئس وجلس جوارها مقطب الجبين يفكر .. أحيانًا كانت عيناه تلمعان ثم يعود لهما الخفوت ..

دق جرس الباب فجأة فأجفل الاثنان .. قالت له فى لهفة :

ـ « هذه (سونيا) .. »

ـ « بل هو (جورشار) .. »

ثم هتف فى حماس وهو يساعدها على النهوض :

ـ « ما زالت لدى أوراق فى كمى ولم أخسر بعد .. ما أريده هو أن تفتحى له الباب ثم تقفى خلفه .. لن يتوقف عندك لأنه لا يعتبرك هدفه .. سوف يندفع للداخل بحثًا عنى . لا أريد منك أن تخرجى من البيت .. فقط قفى على الباب .. خلال دقائق ستزين (سونيا) قادمة .. عليك أن تؤخريها وتمنعيها من الدخول .. خمس دقائق .. هذا هو ما أريده .. »

قالت فى ذعر :

ـ « وماذا لو بدأ بالقبض علىّ ؟ »

ـ « لن يفعل .. هو يريدنى أنا وأولاً .. »

وجلس فى مقعده المختار يدخن فى هدوء .. وهو يسمع الباب يفتح ثم صوت خطوات ثقيلة .. بعد دقيقة دخل (جورشار) الغرفة وألقى نظرة .. لابد أنه دهش لأنه حسب أن (لوبين) قد فر ، لكنه وجده جالسًا فى هدوء ..

ـ « صباح الخير يا (لوبين) .. »

- « صباح الخير أيها المفتش .. آسف إذ لم أستطع لقاءك كما يجب لأن خدمى قد رحلوا .. لقد أفزعهم رجالك الأغبياء .. لكنى لا أنوى أن أطيل هذه الجلسة فلا تخلع القبعة من فضلك .. »

قالها فى تهذيب ساخر .. لمس المفتش قبعته ثم تراجع عن ذلك ومشى عبر الغرفة ليجلس أمام (لوبين) .. سأله هذا الأخير :

- « هل معك أمر بالقبض علىّ ؟ »

- « نعم .. »

- « وهل هو القبض على (لوبين) أم دوق (شارميراس) ؟ »

- « (لوبين) الذى يدعى أنه (شارميراس) .. »

- « إذن لماذا لا تعتقلنى ؟ »

- « لا يوجد ما يمنع .. فقط أنا أطيل لحظة استمتاعى .. (لوبين) العظيم المراوغ هنا فى قبضتى .. لا أصدق هذا .. »

- « فعلاً من الأفضل ألا تصدق هذا .. »

- « هل تعرف أين (سونيا) ؟ »

- « لا .. لماذا تفترض هذا ؟ »

- « لأنها فى فندق صغير قرب (ستار) .. رقم الهاتف هو 555 .. أعتقد أنك تعرفه ، وهى الآن تنتظر مكالمة منك .. »

قال (لوبين) بلهجة لا يخفى ما فيها من وعيد :

ـ « (جورشار) .. كف عن لعب هذه الألعاب .. هذه الطفلة لا علاقة لها بك .. إنه أنا من تريد .. أنا من تمقته .. اللعبة بيننا .. لا تنتقم منها أرجوك لأنك تكرهنى .. لا شأن لها بهذا فلا تفعل أى شىء .. »

قال (جورشار) فى هدوء :

ـ « الأمر يتوقف عليك .. »

ـ « ماذا تعنيه ؟ »

ـ « أتكلم عن صفقة .. صفقة أقدمها لك .. أنا أمنحك الحرية ! »

ـ « حريتى ؟ إذن أنت تمزح .. »

ـ « ليست حريتك أنت بل حريتها هى .. أنا أعرف أنك لا تبالى اليوم إلا بشخص واحد فى العالم .. »

مشى (لوبين) فى الغرفة مفكرًا .. رفع عينيه إلى الساعة على الجدار ، ثم قال :

ـ « ليكن .. أنت الأقوى فى هذه اللحظة .. لكن هذا لن يستمر .. وهل تعطيها حريتها الكاملة ؟ هل تعد بشرفك ؟ وكيف ؟ »

ـ « سألقى بتهم كل السرقات السابقة عليك .. هكذا تنال هى براءتها .. »

- « والمقابل ؟ »

- « كل شىء .. اللوحات .. تحف عصر النهضة .. التاج .. كل معلوماتك عن موت الدوق .. فى الواقع أنا أريد جلدك .. لاحظ أننا قبضنا على (فكتوار) .. هى فى قبضتنا الآن .. »

فكر (لوبين) قليلاً .. مشى فى الغرفة مطرق الرأس، ثم قال :

- « أنا أرفض .. »

- « ترفض ؟ فكر فى تلك الفتاة الرقيقة .. فكر فيها وهى تواجه استجوابًا تلو الآخر .. سوف تنهار فى اليوم الثالث .. وسوف تمنحنا كل ما نريد .. »

- « أيها الخنزير ! »

قالها (لوبين) وهو يرتجف غضبًا .. بصعوبة منع نفسه من الوثب على المفتش وتحطيم عنقه .. ثم أضاف :

- « هذه الفتاة ليست فى خطر .. ليس لديك دليل على أى شىء .. وأنا لن أقبل صفقة لإنقاذ فتاة ليست فى خطر .. »

فجأة دق جرس الباب .. أطل أحد المخبرين، وقال للمفتش :

- « إنها مدموازيل (كريتشنوف) .. »

هنا صرخ المفتش وقد بدا الانتصار صارخًا فى صوته وعينيه :

ـ « اعتقلها ! قيدها ! لدى أمر اعتقالها هنا .. اقبض عليها ! »

ـ « لن تفعل ! »

وثب (لوبين) كالنمر على المفتش ، لكن هذا تحاشاه ووثب إلى الجانب الآخر من المنضدة .. كان (لوبين) يلهث وقد تقلص وجهه ، مع نظرة متوحشة مجنونة .. بعد قليل بدأ يهدأ وقال :

ـ « سأقبل .. »

هنا قال المفتش للمخبر :

ـ « دع مدموازيل (كريتشنوف) تنتظر قليلاً .. »

جلس (لوبين) ، وقال فى كراهية :

ـ « إذن الصفقة كما يلى .. لو سلمتكم اللوحات والتاج وكل ما سرقت من المليونير ، فإنك تعطينى كلمة شرف أن مدموازيل (كريتشنوف) لن تُمسّ .. »

ـ « بالضبط .. »

ـ « ومهما حدث بعد هذا .. لو فررت من السجن .. لو سرقت اللوحات ثانية ، فلا تثريب عليها ؟ »

ـ « بالضبط .. »

ـ « حسن .. كبداية ستجد أوراق موت الدوق في هذه الحافظة .. ستجد كذلك إيصال تسليم اللوحات التى سرقتها إلى (باتينول) .. أما عن التاج فأنت تقريبًا تقف فوقه .. هو فى تلك الحقيبة عند قدميك .. أرجو أن تزنه لتتأكد من أنه ثقيل .. لا أريد المزيد من هذه الأغلاط المؤسفة .. »

كاد المفتش يجن وهو يضع الحافظة فى جيبه ويخرج التاج، ثم طلب من لوبين أن يخرج مسدسه ..

ـ « ليس هذا ضمن التعاقد، لكن هو ذا .. »

وألقاه على المنضدة فدسه المفتش فى جيب معطفه، وهو لا يصدق أن هذا يحدث فعلاً .. ثم مال على أذن (لوبين) وهمس فى نشوة :

ـ « الآن يأتى دور الأصفاد ! »

* * *

الفصل العشرون

نهاية المبارزة

سمع (لوبين) المفتش خارج الغرفة يقول لـ (سونيا) :

ـ « أنت حرة الآن يا آنسة .. الفضل فى هذا يعود للدوق .. يمكنك أن تشكريه على ذلك .. »

دوى صوتها رنانًا بالفرحة :

ـ « أنا حرة ؟ والفضل للدوق ؟ »

ودخلت الغرفة وهى تتواثب فرحًا .. .

هرعت نحو (لوبين) فاستدار قليلاً كى لا ترى الأصفاد فى معصميه ..

ـ « إذن أنا مدينة لك ؟ إذن أنا مدينة لك بكل شىء .. »

أساءت فهم حركته ، فقالت والدمع فى عينيها :

ـ « أعرف .. أعرف أننى أخطأت .. لكنك لا تتصور كم أن كرمك قد غير الكثير فى حياتى .. لقد صرت أكره ماضىّ ، وصارت رؤية أى لص تبعث الغثيان فى نفسى .. »

قال لها فى حزم ليوقف اندفاع عواطفها :

- « ش ش ! أنت لا تعرفين كم تؤلمني كلماتك هذه ! ماذا سيكون شعورك لو عرفت أننى لست الرجل الذى تعرفين ؟ .. لست دوقًا .. لست شريفًا .. »

- « لست شريفًا ؟ »

- « أرسين لوبين ! »

كان قائل هذا هو المفتش (جورشار) الذى وقف على الباب يتابع المحادثة .. فاستدار (لوبين) ليسمح لها برؤية معصميه المكبلين بالأصفاد ..

قالت فى لهفة :

- « برغم هذا .. برغم هذا سلمت نفسك من أجلى .. أنا أعرف هذا .. لهذا أنا مدينة لك .. »

وطوقت عنقه ولثمت جبينه .. قال (لوبين) :

- « برغم كل شىء يا (جورشار) أنا مدين لك بأجمل لحظات حياتى .. »

جاء رجل شرطة يخبر المفتش أن عربة السجن على الباب .. فدنا (لوبين) من أذن (سونيا) وهمس :

- « بعد كل شىء لن أذهب للسجن .. انتظرى مع (فكتوار) فى الصالة .. ثم قفى أمام الباب الخارجى .. »

قال المفتش :

ـ « انتهى الوقت يا آنسة .. »

خرجت الفتاة فتمدد (لوبين) على الأريكة ، وقال فى كسل :

ـ « لا تتصور كم أنا راغب فى النوم منذ ثلاثة أيام .. »

وأغمض عينيه فصاح المفتش فى عصبية :

ـ « لا وقت لهذا .. هل أنت ممتنع عن الخروج معى ؟ »

فى لحظة تمرغ (لوبين) على الأرض ، وبحركة بهلوانية معينة وقف وقد تحرر من القيد الحديدى فى يده ، وقال للمفتش بضحكة خبيثة :

ـ « هل تعرف هذه الحركة ؟ »

صاح المفتش :

ـ « إلىّ يا رجال ! النجدة ! النجدة ! »

قال (لوبين) :

ـ « أنت تعرف أننى صادق .. أقسم أننى كنت سأذهب معك للسجن لو أن (سونيا) أظهرت أية درجة من النفور أو الاشمئزاز منى .. لكنها لم تفعل .. هكذا تجد أنى راغب فى الحرية والحياة مع (سونيا) .. لن أذهب للسجن ! والآن دع رجالك يدخلون ! »

هرع المفتش للباب فاتجه (لوبين) إلى صندوق من الورق المقوى وتناول قنبلة سوداء لامعة .. ثم هرع ليفتح المكتبة كاشفًا عن مدخل المصعد ، فى اللحظة التى عاد فيها المفتش مع رجاله ، وصاح وهو يصوب المسدس نحوه :

- « ارفع يديك ! »

رفع (لوبين) يده والتصق بالجدار وصاح بصوت متوحش مجنون :

- « بل ارفعوا أيديكم أنتم ! أنتم تعرفون ما هذه .. قنبلة ! ارفعوا أيديكم ولا تحاولوا عملاً أحمق ! »

هرع المفتش نحوه لكن أربعة من رجاله وثبوا عليه يمسكون بقدميه ويديه ، ويتوسلون له ألا يكون مجنونا .. من الواضح أن (لوبين) مجنون ولن يتورع عن شىء ..

- « هلم يا (جورشار) أيها اللص .. أعد لى حافظة أوراقى وحقيبتى ! »

صاح المفتش :

- « إنه يخدعكم يا حمقى ! »

لكن الرجال أحاطوا به وراحوا يتوسلون له أن يهدأ ويعطى (لوبين) ما يريد ..

صاح (لوبين) :

ـ « الحافظة فى جيب معطفه أيها البلهاء !! »

مد (بونيفانت) يده وفتح سترة المفتش عنوة وراح يبحث عن الحافظة .. معذرة يا سيدى .. يجب أن يأخذ ما يريد .. هذا الرجل سيقتل نفسه ويقتلنا .. سرعان ما وجد الحافظة فقذفها لـ (لوبين) الذى تلقاها ودسها فى جيبه ، ثم صرخ وهو يرفع ذراعه عاليًا :

ـ « احترسوا ! »

ارتمى الرجال على الأرض مغطين وجوههم ، بينما وثب هو إلى المصعد .. وسرعان ما غاص المصعد لأسفل .. تحرر (جورشار) فصاح فى رجاله :

ـ « يجب أن تقبضوا عليه ! كفروا عن خطئكم ! ليذهب البعض للمخرج السرى وأنت يا (بونيفانت) .. تعال معى لنركب المصعد .. »

ووثب الرجلان إلى المصعد الذى عاد للحجرة .. وجد بسرعة زر التشغيل فضغطه .. وسرعان ما تحرك المصعد .. تحرك لكن لأعلى .. هذه المرة ليقف بين طابقين !

فى الطابق السفلى فى غرفة سرية ، تناثرت ثياب دوق (شارميراس) على الأرض .. كان (لوبين) يقف أمام مرآة تنكر وهو يضع بعض المساحيق بسرعة على وجهه .. يضع معطفًا يشبه معطف (جورشار) وقبعة كقبعته .. حتى حجمه بدا كأنه انكمش ليصير مثل (جورشار) ..

أعاد تأمل ملامحه ثم ابتسم ..

غادر الغرفة إلى موضع يرى من خلاله القاعة فى الطابق السفلى حيث جلست (فكتوار) وجوارها وقفت (سونيا) تهدئ من روعها ، وجوارهما وقف رجل شرطة متوتر يرقبهما كالصقر ..

قال له (لوبين) بذلك الصوت الخشن المميز لـ (جورشار) :

ـ « أنت ! تعال هنا ! »

هرع نحوه الشرطى مذعورًا فاقتاده إلى غرفة جانبية فيها فتحة المصعد السرية ، وقال له :

ـ « بعد قليل سوف يخرج (بونيفانت) من هنا مع (لوبين) .. هل تفهم ؟ (لوبين) سيكون متنكرًا .. يجب أن تقبض عليه فورًا .. اصرخ .. اطلب العون ! »

هكذا وقف الشرطى يرقب الفتحة فى ذعر كأنه يتوقع أن تعضه ، بينما عاد (لوبين) إلى (سونيا) و(فكتوار) وتكلم بصوته العادى فاكتشفت (سونيا) حقيقته .. وأصابها الذهول .. فقالت (فكتوار) :

ـ « أليس معجزة ؟ »

قال :

ـ « الآن فقط يمكن القول إن دوق (شارميراس) قد مات للأبد ! أنت بجانبى و(جورشار) حبيس المصعد .. بم عساى أن أحلم غير هذا ؟ »

ثم اقتادهما إلى الباب الخارجى ..

وقف الشرطى الذى يحرس عربة (جورشار) ليؤدى له التحية العسكرية ، فاتجه (لوبين) بالمرأتين إلى السيارة ..

فى هذه اللحظة نجحت ضربات (جورشار) المتكررة فى تحريك زنبرك ما .. هكذا نزل المصعد بسرعة إلى غرفة التدخين ثم توقف وانفتح بابه ..

على الفور وثب رجل الشرطة المتوتر فوق (جورشار) وألقاه أرضًا وهو يصرخ ، بينما وقف (بونيفانت) يرمق المشهد فى دهشة .. ولم يلبث أن وصل إلى استنتاج منطقى هو أن رجل الشرطة هو (لوبين) متنكرًا .. هكذا وثب عليه وأنشب أظفاره فى عنقه والتحم ثلاثة الرجال فى صراع دموى ..

وفى الوقت ذاته كانت سيارة (جورشار) التى صارت سيارة (لوبين) تندفع عبر الطريق مبتعدة ، متجهة إلى شهر عسل سعيد .

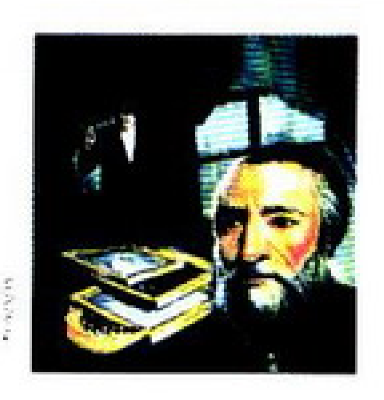
موريس لبلان

روايات عالمية للجيب

مكتبة متكاملة
لاشهر الروايات العالمية







من هو عكس المخبر البريطانى الراقى (شيرلوك هولمز) ؟.. طبعًا هو اللص الفرنسى الراقى (أرسين لوبين) ..!.. يبدو أن (لوبين) ولد على سبيل التحدى الفرنسى للثقافة البريطانية السائدة ؛ فاللص العبقرى قادر على أن يحير المخبر العبقرى ، وأن يفتن القراء بنفس القدر تقريبًا ..

(لوبين) اللص المهذب الراقى شديد الذكاء والظرف ، الذى سيطر على كتابات (لبلان) خمسة وعشرين عامًا .. إنه خبير تنكر وجرائمه ليست ذات طابع أنانى ، بل هو أقرب لروبين هود فى نواح عدة ..

العدد القادم

أليس فى بلاد العجائب

